جسر العودة

أجيال تتوارث الذاكرة والعهد

حزيران، 2202

kayan
كيان . تنظيم نسوي
KAYAN- FEMINIST ORGANIZATION

جسر العودة

أجيال تتوارث الذاكرة والعهد

إعداد: جمعيّة كيان تنظيم نسويّ

تصميم: أمل شوفاني

تدقيق لغوي: جوان صفدي

© حقوق الطبع والنشر محفوظة، 2022

كيان - تنظيم نسويّ

حيفا، 33276

هاتف:04866189O

info@kayan.org

www.kayanfeminist.org

جسر العودة
أجيال تتوارث الذاكرة والعهد

إلى نساء فلسطين اللواتي أرضَعْنَنا
الذاكرة وحُبّ البلاد، وأورثننا الشوق
والحلم والإصرار

إلى من سطّرن أساطير الصّمود، ومن
يُسطّرنها كلّ يوم في كلّ الميادين،

معكنّ نسير على درب عَودتنا، وإليكنّ
نُهدي هذا الكتاب.

مقدمة

كيان - تنظيم نسويّ

"أجيال تتوارث الذاكرة"، مشروع جمعية "كيان- تنظيم نِسويّ" بدعم من مؤسّسة التعاون، يسلّط الضوء على حياة فلسطينيّات من صفد وبئر السبع ودور النساء في تعزيز خطاب حقّ العودة، حَمْل رواية نكبة فلسطين وترسيخها في أذهان ووجدان الأجيال المتعاقبة.

بحثنا عن أصوات النساء وتجاربهنّ منذ أن حطّت النكبة بأوزارها حتى يومنا هذا. التقينا بعض من بقين على قيد الحياة، واستمعنا لقصص أبناء وأحفاد مَن غادرن بعد أن عَمّدن أبناءهنّ وأحفادهنّ بحُبّ البلاد، وغرسن في وعيهم رواية القهر التي رافقتهنّ إلى أن وورينَ الثرى.

منذ نُسجت خيوط المؤامرة الدوليّة على فلسطين، نجد في التاريخ المدوّن والتوثيقات المختلفة، رصدًا مفصّلًا للانتهاكات التي لحقت بالشعب الفلسطينيّ من قتل وتدمير وتشريد ومحاولات إبادة. فقد راكم المدافعون رصيدًا بالغ الأهمية لحفظ التاريخ والرواية، لكنّ الصورة تبقى ناقصة ما لم تستحضر صوت النساء، تجاربهنّ وعذاباتهنّ ومساهماتهنّ في مقاومة الاستعمار، وأناشيدهنّ لعودة المهجّرين إلى ديارهنّ، وحرصهنّ على نقل الرواية جيلًا بعد جيل على مر أكثر من سبعين سنة.

في كتيبنا هذا نستعرض بإيجاز تاريخ مدينتَي صفد وبئر السبع قبل النكبة، ونعرّج على مناحي الحياة المختلفة فيهما لتسليط الضوء على أهميّتهما الاستراتيجيّة التي جعلت الكيان الصهيونيّ يتعنّت بالاستيلاء عليهما، وطمس معالمهما وتفريغهما من السكان الأصليّين وتوطين المستوطنين فيهما.

كما سنسرد ما سمعناه من قصص بنات وأبناء صفد وبئر السبع، المشتاقين لبلادهم، ومنهم من انتهى المطاف به في بلدات أخرى من فلسطين، ومنهم من استقرّ في غربة أبعد، بانتظار العودة يوما ما.

ستأكلنا الضّباع
إن بقينا بلا ذاكرة

(سلمان ناطور)

جُلْنا فلسطين، شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا، التقينا بالأهل من الجيل الأوّل للنكبة، مررنا بالجيل الثاني فالثالث فالرابع ممّن هُجرّوا من قراهم ومدنهم عام 1948 وانتهى بهم المطاف في بلدات فلسطينيّة أخرى، احتضنتهم كما تحتضن الأم وليدها.

بعضهم ما زال يفترش الحصير ويقطن الخيام والأكواخ التي يهدمها الاحتلال مرّة تلو الأخرى، كقرية العراقيب في النقب، وهي واحدة من 45 قرية مسلوبة الاعتراف، يسكنها نحو 700 فلسطينيّ. هدمت العراقيب وأعيد بناؤها 201 مرّة منذ سنة 2000 وحتى كتابة هذه السطور؛ والبعض حظي بمقعد على الأرائك الجلديّة أو حتى الحريريّة، شاءت الأقدار أن يعيدوا تحصيل بعض ما سلب منهم أو إعادة بناء ما هدم. البعض تخرّج من الجامعات والمعاهد العليا، والبعض الآخر لم يحالفه الحظ فارتفع الجدار بينه وبين الحرف؛ إلا أن جلّهم لا يزال يتلمّظ الحنين مع رائحة الخبز الفوّاحة من فرن الطابون، وينتشي حين يُغمس زيت بلاده بخبزها، ويرقص طربًا على أنغام الميجنا والعتابا، ويحفظ وأبناؤه وأحفاده ما خطّه ابن فلسطين، الشاعر عبد الرحيم محمود:

"سأحمل روحي على راحتي وأمشي بها في مهاوي الردى.. فإما حياة تسرُّ الصديق وإما ممات يكيد العدى".

إنّها ذاكرة حنين لا يمتلكها إلا من ينتمي لهويّة عصيّة على الغياب بروحه ووجدانه.

بنات وأبناء فلسطين، في صفد وبئر السبع، أسوة بأخوتهم الفلسطينيين من كل مدن وقرى الوطن وفي المهجر والشتات، لم تثنيهم النكبة التي ألمّت ببلادهم، بكل ما حملت من مآسي وآلام، فقدان قتل وطغيان، مصادرة أراضي وهدم منازل واعتقالات، عن توريث ذاكرتهم بأدق تفاصيلها للأبناء والاحفاد. لا يختلف حال النساء والرجال ممن شُرّدوا إلى خارج الوطن القابضين على مفاتيح بيوتهم أملا بالعودة.

لم يُغفل بحثنا أبناء فلسطين الذين ولدوا في مخيمات اللجوء في سوريا والأردن ولبنان، وانتهى بهم المطاف في الشتات بعد أن منعتهم السلطات من زيارة البلاد. التقينا بعضهم عبر الشاشات الباردة، التي سرعان ما تحوّلت إلى ما يشبه تلك المدفئة التي اعتدنا أن نلتف حولها في طفولتنا مع عائلاتنا في أيام الشتاء ونستمع منهم إلى قصص، مثلما كنّا نسمع قصص جدّاتنا، قصص حملوها في قلوبهم من ذويهم في مخيّمات اللجوء أعادوها على مسامعنا مُعطّرة بدموع سخينة توّاقة لوطن لم تطأه أقدامهم حتى اليوم.

إميل صرصور

ابن فاطمة وخليل صرصور، ولد لعائلة مهجّرة من مدينة صفد، لم يحظَ باللعب طفلًا في شوارعها واحيائها لأنه ولد في مخيم اليرموك لوالدين هجّروا عنوة من مدينتهم صفد عام 1948، ودارت به الأيام ليستقرّ في السويد منذ عام 1990. إميل يحفظ أحياء صفد وشوارعها ومبانيها، تاريخها وجغرافيتها. أخبرنا إميل بكثير من التأثر:

"زرت صفد عام 2005 برفقة العم أبو عاطف إبراهيم، كان يسكن في حاكورة له قرب عكبرة مع ابنه البكر وحفيده، ومحمد المنصور، أحد أقاربي من عرابة البطوف وصديق لي من السويد".

تمكّن إميل من الوصول إلى أنقاض بيت عائلته بمساعدة مخزون ذاكرته ووجدانه لخارطة صفد بحذافيرها كما وصفها له والداه. ليس هذا فحسب بل نقل إميل هذا الإرث إلى أبنائه اللذين ولدوا في السويد، فزرع الانتماء في قلوبهم لنجدهم يكملون المسير بطريقتهم، ولنجد الابن أمير إميل صرصور، شاعرًا يكتب سيرة نكبة فلسطين ويصدح بقصائده في شوارع السويد متحدّثا عن الديموقراطيّات الكاذبة مجلجلًا بقوله:

"المعتدى عليه هو أنا..أنا فلسطين".

عاد إميل إلى فلسطين في 30 أيار من سنة 2010 مع أسطول الحرية، لم تسمح له السلطات بالدخول وتم تحويله إلى سجن بئر السبع حيث احتجز لثلاثة أيام وصدر القرار بحقه أن زيارته لفلسطين ممنوعة.

صفاء خلايلة

لا يختلف حال السيدة صفاء خلايلة، ابنة المرحومة الحاجة صليحة، التي وافتها المنية قبل سنتين في بلدة مجد الكروم، والتي لجأت إليها بعد أن هجّرت من صفد وتشتت عائلتها جمعاء فحرمت من لقاء والديها واخوتها لعقود. حدثتنا صفاء عن لوعة قلب والدتها، عن اشتياقها لعائلتها وبلدها، عن شريط مسجل وصلها سنة 1960 يحمل رسالة صوتيّة من أخيها المقيم في مخيم اليرموك والذي فرّقها عنه الاحتلال حين كان لا يزال في الخامسة من عمره. اعتادت الحاجّة صليحة أن تسمع رسالة أخيها كل يوم، حتى حفظتها صفاء وإخوتها غيبًا. توفّيت صليحة وتوفّي أخوها لكنّ صوته ما زال حيّ ينبض في وجدان الأبناء والأحفاد.

أم فايز- آمنة حليحل

أما الجدّة أم فايز (آمنة حليحل) والتي ناهزت سنواتها المئة، كأنما أبت أن تغادر الحياة قبل أن تكون دليلا لنا في مدينة صفد وقضائها، حيث مسقط رأسها ومرتع طفولتها ودفء لمّة عائلتها قبل أن يشرّدها الاحتلال. لم يُعق المرض جدّتنا ولا كرسي العجلات عن مرافقتنا. انتقلنا برفقتها من صفد إلى عكبرا وقديتا، جالت أم فايز ببصرها الأماكن كافة، شردت ضحكت ابتسمت عبست، عدّدت أسماء أهل البلدة الوادعة، نساءها ورجالها، مناسباتها، أفراحها وأتراحها، جولاتها ونساء القرية بين قديتا وصفد، بيع الحليب واللبن والجبنة، أحاديث النسوة حول بئر الماء.. أجهشت ببكاء مرير حين عانقت عيناها شجرة التوت التي ما زالت شامخة شاهدة على أنقاض بيت والدها في قرية قدّيتا. وختمت زيارة صفد بالقول: "بدنا نرجع ع صفد".

لم يتسنّ لنا أن نحقق الوعد الذي قطعناه للجدة بأن نعود معها في زيارة أخرى لصفد.. فقد كانت المنية أسرع منّا إليها.. رحلت بينما كنا نكتب سطورنا هذه (2022/4/13) تاركة خلفها إرثًا عزيزًا بأمانة الأبناء والأحفاد وأحفاد الأحفاد.

آمنة حليحل

المصدر: إبتسام حليحل كبابو

في 1948/10/22 سقطت بئر السبع، المدينة التاريخيّة للفلسطينيّين، التي كانت يوما الحدّ الجنوبيّ لأرض كنعان. وبسقوطها تمكّن الصهاينة من الاستيلاء على جنوب فلسطين.

بسمة الصانع

قالت الحاجة بسمة الصانع، المهجّرة من منطقة وادي الشريعة في النقب، والتي تبلغ اليوم الثمانين من العمر: "سكنّا وادي الشريعة، عائلات وعشائر كثيرة طول حياتنا، كنا نزرع الأخضر بالحبوب والقمح ونحصدها، ونعيش بأمان معًا. الجميع كان يعرف وادي الشريعة، ولم يرد أحد مغادرته حتى جاءت إسرائيل، هدّدونا وأرادوا أن نرحل عن الشريعة، ولم يقبل أحد بالرحيل، فبدأوا بإطلاق النار وصنع الكمائن للقادمين والخارجين وانتشر القتل وحرق الخيام، أطلقوا النار كثيرًا، وضيّقوا على الناس كثيرًا، وطالبوا أن نرحل إلى الأردن". عن التهجير القسري قالت الحاجّة بسمة الصانع:

"حمل الناس حصادهم، مؤنتهم وخيامهم، واستقرّوا على الحدود مع الأردن حتى يسلموا من اليهود. الأردن لم تقبل بأن ندخل إليها فرحلنا إلى قرية اللّقية، ولكن الجيش لحق بنا وأعاد إطلاق النار والتضييق علينا لكي نرحل، حتى طردنا إلى تل عراد، وبقينا هناك وأحبّتنا الأرض فحصد الناس وزرعوا وارتاحوا قليلًا، ولكن الحاكم العسكري لم يتوقّف عن التضييق. الحمد لله لم يرحل أحد، وعدنا بعدها إلى اللقية وليس إلى الشريعة".

بسمة الصانع

المصدر:المخرج عصام بلّان

غيّرت ليلة الثاني والعشرين من تشرين الأوّل/ أكتوبر 1948 كلّ شيء، إذا سألت أيّ مُطّلع أو أيّا ممن عايشوا تلك الفترة عن سقوط بئر السبع، قد يجيب بأن عنوان ذلك المشهد هو "انكسرت بئر السبع"، ضاعت المدينة وسرقت ديرتها. نعم ، سلبت الحاضنة والمدينة وسرقت المؤسّسات بين ليلة وضحاها، ولكن هل توقّفت النكبة عند إفراغ المباني وقتل وتهجير أهلها؟

عن النكبة المستمرّة في النقب، قال الأستاذ **محمد أبو جابر**، وهو أسير محرّر من قرية اللقيّة ومربّ فُصل من سلك التعليم الإسرائيليّ عام 1985 بسبب آرائه السياسية:

"إن أكثر ما نخاف منه، نحن كبار السنّ، هو أن لا يقوم الشباب بدوره في حفظ الهويّة ونقل حقيقة معاناة شعبنا الفلسطينيّ للأجيال الصاعدة. الحقيقة لم تنتقل بالسلاسة المفترضة، والاحتلال لم يرفع القبضة العسكريّة عن النقب يومًا، ولا أعتقد أنه سيفعل حتى إذا سلب آخر جزء من الأرض".

ظنّ المُستعمر أن البطش والقتل والتهجير وسلب الناس أرضهم سيسلبهم الذاكرة وسيردع أبناء البلاد من السعيّ لاسترداد حقوقهم، فسُحقت توقّعاته أمام عزيمة نساء فلسطين اللاتي أنجبن المُقاومات والمُقاومين، وأبدعن في حفر التاريخ في الذاكرة وغرس الحب والانتماء للبلاد في أذهان ونفوس الأجيال المتعاقبة لتنبت صمودًا عصيّا على الكسر. أجيال نَسَجت الذكريات من رائحة برتقال يافا وعنب الخليل وزيتون صفد، من حرّ الصحراء وذهبيّة سنابلها.

قال المُستعمر إن الكبار يموتون والصغار ينسون، نقول إن "تراب العالم لا يغمض عينيّ جمجمة تبحث عن وطن".

فلسطين اليوم

في العاشر من كانون الثاني/ يناير 2022، وبينما كنّا نكتب سطورنا هذه، استيقظت قرية سعوة الأطرش في جنوب فلسطين المحتلّة (بئر السبع) على ضجيج قوّات شرطة وجرّافات تقتحم القرية، لإكمال مخطط التشجير الذي كانت قد بدأته في أواخر كانون الأوّل/ ديسمبر 2021.

اصطدمت قوات الشرطة الإسرائيلية بصمود وثبات السكان والمؤازرين من البدو الفلسطينيّين في النقب، وقابلتهم الشرطة بالقمع الشرس. خَلّفت المواجهة عشرات الإصابات والاعتقالات. انطلقت الشرارة من قرية سعوة فاستنفرت باقي البلدات الفلسطينيّة لتخرج الجماهير في مظاهرات تضامنيّة مع القرية منددّة بالاعتداءات التي لحقت بالأهل في جنوب فلسطين. خلّفت المظاهرات 150 من المعتقلين، 40% منهم قاصرين، وقد كان لافتًا في هذه المظاهرات الدور الفعّال للنساء السبعاويّات اللاتي شاركن جنبًا إلى جنب مع الرجال بالتصدّي لخطط التهجير والتشريد ومشاريع التهويد.

منذ النكبة، تعاني المرأة البدوية الأمرّين من سياسة هدم المنازل والمنشآت وتدمير المحاصيل الزراعيّة، من الهدم والتشريد بفقدان الأمن والأمان، إذ يترتّب عليها مرارا، بحكم دورها في المجتمع، العودة من جديد لإعداد المسكن الآمن لأولادها ومحاولة التخفيف من تداعيات الاقتلاع من الأرض وهواجس التهديد المستمر. الاعتداءات في قرية سعوة الأطرش، أعادت صراع النقب مع المستعمر منذ النكبة وحتى اليوم إلى الواجهة، لتذكر بأن النقب صامد في وجه التهويد؛ على الرغم من القمع والاعتقالات التي لم تنل من عزيمة النساء والفتية والشبّان الذين واصلوا النضال بوجه الجرافات، وتصدّوا لاعتداءات الشرطة، وأرغموا بصمودهم القوّات على الانسحاب وتعليق أعمال التجريف والتحريش.

تريد الصهيونيّة تفريغ ديار السبع و"تطهيرها" من الدم الفلسطيني أسوة بما فعلته في صفد هي الغاية والمبتغى.

الجزء الأول

صفد؛ منارة فوق جبل

د. جوني منصور

"صفد"، المدينة الصغيرة الرابضة فوق قمّة جبل كنعان ذات الشهرة التاريخيّة الأكبر من حجمها الجغرافيّ. لكنّ المدن لا تقاس بحجمها على الأرض، بل بمساهماتها الثقافيّة والحضاريّة والاقتصاديّة. موقع صفد الاستراتيجيّ جعلها على الطريق الرابط بين دمشق ومدن فلسطينيّة عديدة. فكانت بذلك محطّة تجاريّة مهمّة. امتهن الكثيرون من أهلها التجارة واشتهروا بها، لدرجة أنّهم نافسوا تجّار نابلس والقدس والشام. ولعبت المدينة دورًا رياديّا في الحركة الوطنيّة عمومًا، كما كان لنسائها دور في الحركة النسويّة الفلسطينيّة. كون المجتمع الصفديّ محافظا لم يمنع الأهالي من إرسال بناتهنّ للدراسة خارج المدينة وكسب العلم والمعرفة وتبوّء مناصب وأدوار تربويّة وتعليميّة ووظائف خدماتيّة في وقت لاحق، لا سيّما بعد النكبة، التي شرّدت الشعب الفلسطيني وشتّتت شمله. نقدّم هذه المادّة حتى نذكر صفد المدينة المميّزة بموقعها ودورها المدينيّ والحضاريّ وسكّانها ومشاركاتهم بالفعل الحياتيّ الفلسطينيّ، التي استمرّت حتّى عام 1948 وانتهت بأكبر عمليّة تطهير عرقيّ عرفتها المدينة، كسائر المدن والقرى الفلسطينيّة.

الاسم، العنوان ولمحة تاريخيّة

يعود اسم صفد إلى الكنعانيّة ويعني "المرتفع" أو "العطاء". تقع صفد في الشمال الشرقيّ من فلسطين، على ارتفاع 850-900 م عن سطح البحر. تُشرف على بحيرة طبريّا من الجنوب الشرقيّ، ومن الغرب على جبل الجرمق، ومن الشمال تطلّ على الأراضي اللبنانيّة ومن الشرق على سهل الحولة وهضبة الجولان. منحها ارتفاعها وموقعها الجغرافيّ مكانة مميّزة في عدّة مجالات، وسرّع نموّها الاقتصاديّ والاجتماعيّ مع مرور الزمن، وساهم في جعلها مدينة مميّزة بنظامها واقتصادها.

علاقة صفد مع التاريخ القديم عريقة، إذ تُشير الاكتشافات الأثريّة فيها وفي المناطق المجاورة لها أنّ النشاط البشريّ حصل فيها في الألفيّة الثانية قبل الميلاد. وعثر خبراء الآثار على مقابر قديمة وبقايا بيوت تعود إلى العصر البرونزيّ. كانت صفد قرية صغيرة عديمة الشأن، إلى أنْ شيّد الرومان فيها قلعة للإشراف على الطرق التجاريّة ولحماية جنودهم. وانتقل إليها مركز اليهود بعد خراب هيكلهم في القدس في نهاية القرن الأوّل للميلاد، وأصبحت من أهم مدنهم، بل أكثرها قداسة بعد "أورشليم".

أمّا بدايات بروز صفد على خارطة النشاط السياسيّ والعسكريّ فكانت في فترة الحملات الصليبيّة. احتلها الصليبيّون عام 1140 وبنوا فيها حِصنا للدفاع عن الساحل الذي غزوه أمام هجمات أمراء دمشق والأيوبيّين. فلّما هزمهم صلاح الدين الأيوبيّ في معركة حطّين سنة 1187 حاصر صفد، وتولّى هو زمام القتال بنفسه، حتّى حرّرها تمامًا عام 1189. ودمّر الحصن منعًا لعودة الفرنجة عام 1220. إلاّ أنّهم تمكّنوا من استعادتها بعد عشرين سنة، وبقيت تحت أيديهم حتّى عام 1267 حين حرّرها الظاهر بيبرس. بنى بيبرس فيها مسجدًا وطوّر سوقها لجذب التجار وتشجيع التجارة. حافظت صفد على وضعها هذا إبّان حكم المماليك، إلى أن وقعت بأيدي العثمانيّين في عام 1517. وجعلها الأمير فخر الدين المعني الثاني حصنًا لحماية أملاكه فيها وفي المنطقة المحيطة. ثمّ عيّن العثمانيون لإدارتها أفرادًا من الشهابيّين، إلى أن كُلِّف عمر الزيدانيّ بإدارتها. واستمر في هذا المنصب من بعده ابنه ظاهر العمر الزيدانيّ، الذي ساهم في تطويرها وضمّها إلى مجموعة مدنه المركزيّة.

في عهد الشيخ ظاهر العمر الزيدانيّ ازدهرت الزراعة والتجارة والعمارة وساد الشعور العام بالأمان. حكم صفد بعده الوالي أحمد باشا الجزّار. وقد اضطرّ نابليون إلى احتلال صفد عام 1799 قبل أن يحاصر عكا، لكنّه واجه فيها مقاومة شرسة من الوالي أحمد باشا الجزار بمساعدة الأسطول الإنكليزيّ. فأخفق في تحقيق أهداف حملته العسكريّة، وانسحبت قوّاته من فلسطين وبلاد الشام كلّها.

كانت صفد في أوائل القرن السابع عشر مدينة زاهرة، تنتشر بيوتها حول تلّة في أعلاها قلعة، ويحيط بها سور وخندق، وكروم الزيتون والعنب، ويشتغل أهلها بصنع النيلة ونسج الأقمشة القطنيّة. وكانت تقام فيها سوق للجيران القرويّين في كل يوم جمعة. تعرّضت إلى زلزالين قويّين، الأوّل في عام 1819 والثاني في عام 1839 تسبّبا في دمارها بالكامل تقريبًا، لولا إعادة بنائها المرّة تلو الأخرى لما بقي منها شيء.

خلال النصف الثاني من القرن الـ 19 وحتى الحرب العالميّة الأولى شهدت صفد موجة من التقدُّم العمرانيّ والاقتصاديّ، حين سكنتها عائلات وفدت من سوريا ولبنان ومن داخل فلسطين. احتلّها الإنكليز عام 1918 خلال الحرب العالميّة الأولى.

حافظت صفد في عهد الانتداب البريطانيّ على شكلها العام، رغم نموّها السكانيّ والعمرانيّ. ففي عام 1922 بلغ عدد سكّان المدينة 8,761 نسمة. وهو أقل ممّا كان عليه قبل الحرب العالميّة الأولى وخلالها. ويُعزى هبوط عدد السكان إلى الظروف السيئة التي مرّت بها المدينة خلال الحرب، إذ تعرّض كثيرٌ من سكانها للأمراض والمجاعات. وهاجر بعضهم منها إلى الخارج بحثا عن الرزق. بعد أن استقرّت الأوضاع قليلاً في المدينة ارتفع عدد سكّانها تدريجيّا حتى وصل في عام 1931 إلى 9,441 نسمة، كانوا يقيمون في 2,126 بيت. وفي عام 1945 وصل عدد السكان إلى11,930 نسمة. وقُدّر عددهم في أواخر الانتداب بنحو 13,386 نسمة.

في أواخر العهد العثمانيّ تأسّست في صفد بلديّة، أشرفت على تطوير الأحياء السكنيّة والتجاريّة فيها خلال فترة الانتداب، فتحوّلت المدينة إلى مركز للقضاء واستفادت من تطوّرها المدنيّ عشرات القرى المحيطة بها. بادرت البلديّة إلى المشروعات الحيوية؛ كتنظيم المياه والكهرباء والشوارع والمدارس وإنشاء الأسواق والفنادق والمقاهي والنوادي والجمعيّات والمنتزهات وغيرها.

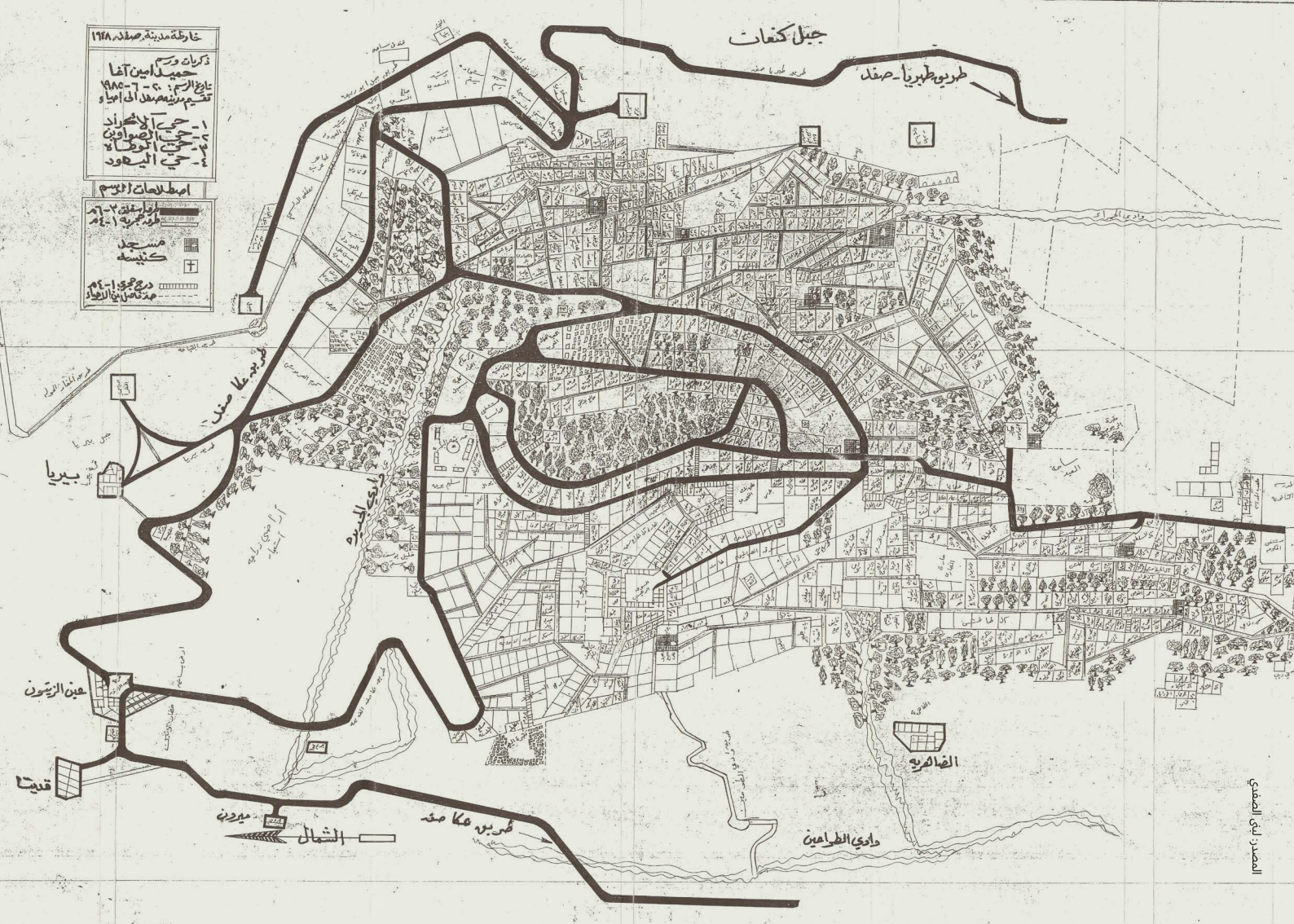

المصدر: لبنى الصفدي

أهميّة صفد

لعبت المدينة دورا مهمّا على مرّ الزمن وعلى عدّة مستويات:

الإدارة

كانت صفد مركزًا لقضاء حمل اسمها. وشمل في الفترة العثمانية 78 قرية ومزرعة. أمّا في الفترة الانتدابيّة فبلغ عدد قرى قضاء صفد 69 بالإضافة إلى عدّة عشائر عربية انتشرت فيه. بقي الأمر على هذا الحال إلى عام النكبة وانسحاب الإنكليز منها، واحتلالها إلى أن سلّمها الإنكليز للعصابات الصهيونيّة عام 1948 فشرّدوا أهلها وأهالي قراها التي دمّروها الواحدة تلو الأخرى.

التجارة والسياحة

كانت صفد محطّة للقوافل التجاريّة قديمًا، مركزًا لتسويق منتجات إقليمها الزراعيّة والحيوانيّة، ومركزًا تجاريًّا يجد فيه القرويون حاجاتهم من المواد التموينيّة والأقمشة والأدوات الكهربائيّة والأثاث وغيرها، وكانت التجارة والحرف أبرز مصادر رزق أهلها. كان مزارعو المنطقة يبيعون محاصيلهم ومنتجاتهم في أسواقها، وأشهرها سوق الجمعة. كما اعتبرت صفد من أشهر مصايف فلسطين ومواقعها السياحيّة، حيث كان يؤمّها الآلاف خلال الصيف للتمتّع بهوائها ومناظرها الخلابة وآثارها ومحلّاتها التجاريّة وفنادقها المشهورة.

سوق صفد، 1925

المصدر:
موقع أجداد العرب

الصناعة

اشتهرت صفد تاريخيًا بصناعة اللبّاد، معتمدة على ما يصلها من أصواف أغنام القرى المحيطة بها. خلال القرن التاسع عشر، كانت الصباغة بالنيلة ونسج الأقمشة القطنيّة مهن الأهالي الرئيسة في صفد. في عهد الانتداب البريطانيّ أضيفت صناعات جديدة كالصناعات الغذائيّة، وأبرزها "الجبنة الصفديّة" و"الحلاوة الصفديّة". بالإضافة إلى صناعات جلديّة وصناعة الحُصر والكراسي من نباتات كانت تصلها من سهل الحولة، وصناعات وحرف تقليدية كالحدادة العربية وصناعة النحاس وغيرها. وكان لليهود فيها مخابز للمصّة اليهودية ومأكولاتهم التقليديّة والطقوسيّة، التي كانت تباع في أسواق المدينة وخارجها.

الزراعـة

على خلاف المتّبع في المدن، عائلات صفديّة كثيرة اعتمدت الزراعة مصدرا للرزق، لأنّ الأراضي الجبليّة المحيطة بها تصلح للحبوب والعنب والزيتون والتبغ. كما انتشرت كروم العنب والتين والرمان والتفاح وبيّارات الليمون الصفديّ على منحدراتها، خاصّة في وادي الطواحين.

وكانت صفد تعتمد على القرى المحيطة بها في إكمال احتياجاتها الزراعيّة. وقرى قضاء صفد مشهورة بزراعة الزيتون والخضراوات والقمح وغيره حتّى يومنا هذا.

العسكريّة

موقع صفد منحها أهميّة استراتيجيّة حيث أنها مشرفة على المنافذ الطبيعيّة والحدود الشماليّة. ويتحكّم موقعها بالطرق المؤدّية إلى المناطق المجاورة لها وتلك البعيدة عنها. فهي تُشرف على سهل الحولة في الشمال، وعلى بحيرة طبريّة في الجنوب الشرقيّ، وتتحكّم من الغرب في طريق عكا– الرامة، والطرق المؤدّية إلى حدود فلسطين الشماليّة. فلا عجب إذًا أن تعتبر العصابات الصهيونيّة ومن بعدها جيش الاحتلال الإسرائيليّ احتلال صفد في غاية الأهميّة. وقد حرص الاحتلال على جعلها نقطة عسكريّة من الدرجة الأولى.

الثقافة والتعليم

تأسّست في صفد مدارس ابتدائيّة عديدة خلال الفترة العثمانيّة، منها عربيّة وأخرى يهوديّة، منها الحكوميّة ومنها الخاصّة. كانت المعارف العثمانيّة تدير المدارس الحكوميّة، ومن بعدها تولّت أمرها الحكومة الانتدابيّة. أمّا المدارس الخاصّة فكانت تتبع البعثات الدينيّة اليهوديّة والكنسيّة المسيحيّة. أبرز تلك المدارس كانت المدرسة الاسكتلنديّة التي عرفت أيضا باسم مديرها "مستر سمبل"، التي استمرّت حتّى اندلاع الثورة الفلسطينيّة الكبرى عام 1936 ونقلت بعدها إلى حيفا. ساهمت مدارس صفد في رفع المستوى التعليميّ في المدينة وتحسين الأوضاع الاجتماعيّة فيها. برزت، بالتوازي مع النشاط التعليميّ، ظاهرة تأسيس الأندية الرياضيّة والثقافيّة فيها كالنادي الرياضيّ الإسلاميّ والنادي الثقافيّ المسيحيّ ونواد يهوديّة. وضع هذا المشهد صفد بين المدن التي تمتّعت بأعلى نسبة علم وثقافة شملت الذكور والإناث. على الرغم من كون المجتمع الصفديّ محافظا لدرجة التشدّد، التحق عدد كبير من بنات صفد بمدارس المدينة، وكانت ظاهرة التعلُّم لافتة. وقد تابع العديد من خرّيجي وخرّيجات مدارس صفد التعليم الجامعيّ في بيروت والقاهرة والقدس والجامعات الأوروبيّة.

العمل الأهليّ

اعتبرت صــفد من أبرز مــراكز النشاط السياسيّ والثقافيّ. وساهمت مؤسّساتها في تطوير المشهد الحياتيّ الاجتماعيّ والثقافيّ في المدينة والجوار. فكثُرت في المدينة الجمعيّات والمؤسّسات الأهليّة التي كانت توفّر للأهالي الخدمات التي لا تقدّمها مؤسّسات الانتداب البريطانيّ. من أبرزها: الجمعيّة الإسلاميّة– المسيحيّة، النادي الرياضيّ الإسلاميّ، النادي الثقافيّ المسيحيّ، جمعيّة الشبّان المسلمين، جمعيّة العمّال العربيّة الفلسطينيّة(فرع صفد). كما نجد في صفد فروع وامتدادات للأحزاب والحراكات السياسيّة والثقافيّة الفلسطينيّة. كذلك ظهرت في المدينة بوادر حركة نسائيّة تمثّلت بأندية وجمعيّات ونشاطات نسويّة، شهدت ازدهارها في الثلاثينيّات والأربعينيّات من القرن الماضي.

عائلات صفديّة

النحوي، القاضي، المفتي، قدورة، صُبح، مراد، رستم، الحاج سعيد، الخضرا، الأسدي، الصفدي، الخوري، الصباغ، الحداد، البشت، سمعان، عبو، فريدمان، عمّار.

الحارات والمعالم

بنيت الأحياء في صفد بشكل دائريّ منسجم مع جغرافيا المدينة. من هذه الأحياء نذكر: حيّ الأكراد والجورة والقلعة والبرج والصواوين وجامع الأحمر والوطأة والسوق. تميّزت أحياء صفد القديمة بتلاصق بيوتها. بنيت هذه البيوت من الحجر الأبيض، وتكسو معظمها الأسقف القرميديّة. توسّعت هذه الأحياء قبل النكبة وامتدّت حتى جبل كنعان.

أما وسط مدينة صفد فكان يشمل الأسواق التي ضمّت نحو 80 متجرًا. وفيه الجوامع، وأهمّها جامع اليونسي والجامع الأحمر وجامع السويقة وجامع الجوقنداري وجامع سيّدنا يعقوب وجامع خفاجة. كما أنّ في صفد عدد من المقامات المقدّسة لدى أهل المدينة والقرى المجاورة، وزوايا صوفيّة تشتهر صفد ببعضها، ومن أبرزها: الزاوية الأسديّة التي أسّسها أحد أفراد عائلة الأسدي في القرن السادس عشر، والزاوية الأحمديّة في حارة الصواوين، وزاوية بنات حامد حسب الطريقة الصوفيّة السعديّة، أي أنّ مؤسّسيها من آل السعدي.

كما أنّ في صفد كنيستين الأولى للروم الكاثوليك، والثانية للبعثة التبشيريّة الاسكتلنديّة التي أدارت أيضًا مدرسة فيها قسم داخليّ تعلّم فيها طلاب من المدينة والقرى المجاورة، وأيضًا من قرى بعيدة عن صفد. ولليهود عدد من الكنس والمعاهد الدينيّة، من أبرزها الكنيس السفارادي والكنيس الأشكنازي وكنيس الشيخ وكنيس أبو هاب. بالإضافة إلى قبور عدد من الصدّيقين المنتشرة في الأحياء اليهوديّة وخارجها.

العمل السياسيّ

ساهم صفديّون في النشاط السياسيّ المحلّي في المدينة، ومنهم من ساهم على المستوى القطريّ، كصبحي الخضرا والمفتي أسعد قدورة وشحادة خوري وغيرهم. وشارك هؤلاء في المؤتمرات العربيّة الفلسطينيّة التي انعقدت في العشرينيّات. ومنهم من شارك لاحقًا في الأحزاب السياسيّة في الثلاثينيّات. وانقسم الصفديّون إلى المعسكرين المتنافسين: المجلسيّون مع الحسينيّين، والمعارضون مع النشاشيبيّين.

شاركت المدينة في الثورة الفلسطينيّة الكبرى في الثلاثينيّات من القرن الماضي. كما تأثرت من حوادث هبّة البراق كثيرًا. إذ أن أخبار ما كان يجري في القدس وصلت إلى صفد بصورة مضلّلة، دفعت بالصفديّين إلى مهاجمة الحيّ اليهوديّ والتسبّب في القتل والدمار والخسائر الكثيرة التي لحقت بأهله. إثر ذلك أصدرت حكومة الانتداب حُكمًا بالإعدام على ابن صفد فؤاد حجازي مع عطا الزير ومحمد جمجوم من الخليل. ونُفّذ هذا الحكم في سجن عكا عام 1930. وقد تركت هذه الأحداث وما تلاها أثرًا على العلاقات مع اليهود، التي زادت تأزّمًا كلّما اقتربنا من عام النكبة، لدرجة أنّ الأعضاء اليهود في المجلس البلديّ استقالوا في عام 1946 وانكفأوا على أنفسهم وعزلتهم. وانتظر اليهود فرصة الانتقام، حتّى وجدوها في نفي العرب من المدينة تمامًا عام 1948، بعد أن عاشوا معهم فيها قرونًا طويلة.

سقوط المدينة

كانت صفد ضمن خطّة تصفية المدن الفلسطينيّة التي وضعتها القيادة العسكريّة لعصابة الهاغاناه الصهيونيّة عام 1948. وحشدت الهاغاناه المئات من عناصرها المدجّجين بالسلاح للانقضاض على المدينة. أمّا العرب فجهزوا فرقًا للدفاع عن المدينة وحمايتها، كذلك نشط المقاومون في داخلها. إلّا أنّ عدّة أزمات وعقبات اعترضت عمليّة حماية المدينة، كان أبرزها النقص في العتاد الحربيّ على أنواعه، وضعف التعاون بين الفرق العسكريّة من جيش الإنقاذ والجيش الأردنيّ والسوريّ، واشتداد المنافسة بينهم لفترة طويلة. وقد أضعفت هذه المنافسات والخلافات بين القيادات قواعد الدفاع

عن صفد بشكل كبير. كما أن اليهود الصفديّين الذين أرادوا الانتقام من جيرانهم العرب في المدينة بحجّة ما لاقوا منهم في أحداث هبّة البراق عام 1929، غدروا بهم في عام النكبة، حين حشد الصهاينة قوّات خارج المدينة مع قوّات يهود صفد داخلها وهاجموا الأحياء العربيّة ودفعوا السكان إلى ترك البلد مخلّفين بيوتهم وممتلكاتهم للنهب، حتى أنّه لم يبقّ أي عربيّ صفديّ في المدينة. كما أنّ الانباء التي وصلت حول مجزرة قرية عين زيتون القريبة، ساهمت في دفع مئات العائلات إلى تركها لدى سقوطها بأيدي العصابات الصهيونيّة. استولى الغزاة على البيوت والمحلّات التجاريّة العربيّة مباشرة، وعلى المؤسّسات المدنيّة كالمجلس البلديّ ومركز الشرطة ودوائر الحكومة في المدينة.

كان عدد العرب في صفد سنة 1948 قرابة أحد عشر ألف نسمة. لم يبق منهم أحدا. استبدل العرب بمئات العائلات التي جلبتها الحركة الصهيونيّة من أنحاء العالم لتستوطن في بيوت العرب. وقد حرصت إسرائيل على مرّ السنين، على منع أيّ عربيّ من السكن والعيش في المدينة، إلا لأغراض تلقّي الخدمات الرسميّة والعامّة وضرورات العمل.

بلغ عدد سكّان صفد في عام 2020 نحو أربعين ألفًا، كلّهم من اليهود. وفقدت صفد مع مرور الوقت أدوارها المختلفة، وتحوّلت تدريجيّا إلى مدينة يهوديّة تميل إلى التزمّت الدينيّ.

أعلام من صفد

خرّجت صفد عددًا من الشخصيّات الاعتباريّة وذات المكانة الاجتماعية أو السياسيّة، لا يمكننا أن نحصيها جميعها هنا. لعلّ الاسم الأبرز هو محمود عبّاس (أبو مازن) رئيس السلطة الفلسطينيّة، الذي فاجأ الصفديّين والفلسطينيّين عامّة بتصريحه التلفزيونيّ الذي يتنازل فيه عن حقّ العودة إلى صفد. وربّما نقيضه في ذلك هو ابن صفد وديع حدّاد، الذي كان أحد أبرز المناضلين في الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة ومن مؤسّسي الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين. أمّا فؤاد حجازي، الاسم الذي ردّدته الأجيال بأغنية "من

سجن عكا" فكان صيدلانيّا درس في كليّة سمبل الاسكتلنديّة في المدينة وحكم عليه الإنكليز بالإعدام في أعقاب هبّة البراق. عبد العزيز سعيد النحوي وهو محام نشط في ثلاثينيّات وأربعينيّات القرن الماضي. نذكر أيضا فؤاد توفيق الخولي، وهو من كبار تجّار المدينة والمنطقة، صبحي الخضرا الذي كان مناضلًا ومحاميًا مرموقًا، علي رضا النحوي الذي كان رئيس بلديّة صفد، ومحمد سليم شما الذي أشغل المنصب ذاته، وحسيب الصباغ وهو مهندس ومستثمر عربيّ معروف بدعمه لمشاريع خيريّة عديدة، وتوفيق الخوري الذي كان من المستثمرين المعروفين.

النساء الصفديّات

عُرفت المرأة الصفديّة بقدراتها الإداريّة وتدبير أمور البيت والعائلة، لكنّ هذا لم يمنعها من المشاركة في نشاطات خارج الحيّز العائليّ. كانت مع الثوّار في زمن الثورة الفلسطينيّة، وواجهت الشدائد بالصبر والتفاني خلال تعرّض صفد لهجمات العصابات الصهيونيّة والتهجير. على الرغم من العادات والتقاليد المقيّدة للنساء خاصّة في ذلك الزمان، برزت في فترة الانتداب البريطانيّ وبعده في الشتات، شخصيّات صفديّة نسائيّة على الساحة العربيّة والإقليميّة، منهنّ من تعلّمن ومارسن في وقت لاحق مهنة التدريس والتمريض في صفد وغيرها ومنهنّ من نشطت في الأدب والشعر والفنون والسياسة أيضا. فيما يلي بعض هؤلاء النساء:

سلمى الخضرا الجيوسي

شاعرة معروفة وهي ابنة المناضل الفلسطينيّ صبحي الخضرا الذي كان أحد زعماء صفد. ولدت عام 1928. تعلّمت بعض الصفوف في صفد ثم في عكا والقدس حيث كان والدها يعمل محاميًا. تزوّجت من برهان الجيوسي، وهو دبلوماسيّ أردنيّ تنقّل في عدد من العواصم الأوروبيّة، وكانت هذه فرصة لها للتعرف على ثقافات متعدّدة ساعدتها في إثراء أدبها. درست الأدب العربيّ والشعر بشكل خاص، وجمعت الكثير منه. اهتمّت بوضع مجموعة من الموسوعات في الأدب والمسرح العربيّ، إلى جانب ترجماتها، ولا سيّما

للشعر والأعمال الروائيّة لعدد من الكتّاب الفلسطينيّين أمثال سحر خليفة وإبراهيم نصرالله وحنا مينا وليلى الأطرش وغيرهم. كما نشرت بعضًا من دواوين الشعر، وحازت على عدد من الأوسمة والجوائز التقديريّة.

حفيظة عبد الرحيم قدورة

عيّنتها المعارف الانتدابيّة معلّمة في مدرسة صفد للبنات في العام الدراسيّ 1927 لسنة واحدة. فعُرفت بمهاراتها في التعليم، وجديّتها في التعاطي مع تعليم البنات باعتباره مدخلًا إلى العالم المتغيّر.

إنـعام المـفتي قـدورة

وُلدت إنعام قدورة في صفد في 26 شباط/ فبراير 1929 وتوفّيت في الأردن عام 2018. وهي ابنة الشيخ أسعد قدورة مفتي صفد وأحد الشخصيّات الوطنيّة المعروفة، وابنة صبحيّة حسن الخولي من عائلة تجّار ثريّة، التي كان لها دور اجتماعيّ بارز في تلك الفترة. نشأت في الناصرة بحكم عمل والدها. أشغلت منصب مديرة لدار المعلّمات في نابلس. حاصلة على دبلوم في التربية والتعليم وعلم النفس التربويّ. انضمّت إلى الإذاعة الأردنيّة في عام 1956 وساهمت في عدد من البرامج التنمويّة والتوعويّة، وفي تأسيس معهد لتأهيل المعلّمات في رام اللّه. تولّت إنعام مناصب وزاريّة وإداريّة في حكومات الأردن، فكانت أوّل امرأة تتولّى وزارة في الحكومة الأردنيّة، ومنها وزارة الرفاه الاجتماعيّ في السبعينيّات من القرن الماضي. وكان لها دور بارز في التربية والعمل الاجتماعيّ والنسويّ، إذ اشتهرت بقولها "إن السبيل إلى تحقيق التنمية الصحيحة المستدامة هو في تعزيز مشاركة المرأة فيها، فتمثيل الفتيات في جميع برامج التعليم العالي في البلدان العربيّة دون المستوى المنشود وكذلك في معظم الوظائف الإداريّة والسياسيّة العليا، ولن يتحقّق تعزيز مشاركة النساء إلا عن طريق التعليم".

وديعة الياس حداد- جرار

هي شقيقة المناضل وديع حداد. ولدت في صفد عام 1927 تلقّت تعليمها الابتدائيّ في صفد، ثم الثانويّ في كلّية البنات الإنكليزيّة بحيفا، ودرست لاحقًا في جامعة كمبريدج الإنكليزيّة. بعد عام 1944 ساهمت وديعة في

وضع أسس تعليم الرقص الكلاسيكيّ والمعاصر. كما كانت أوّل معلّمة للدبكة اللبنانيّة. وشاركت مع زوجها مروان جرار في مهرجانات بعلبك، التي اشتهرت عربيًّا وعالميًّا في الفترة بين 1951-1960. كان لها تأثير بارز ومباشر على فنون الأداء الحركيّ والرقص الكلاسيكيّ، وخاصّة الباليه وتطويعه ليتناسب مع الجمهور العربيّ. ساهمت وديعة حداد- جرار في إحياء الفلكلور وتطويره والحفاظ عليه، ليصلنا شاهدًا على الرقيّ الحضاريّ الفلسطينيّ والصفديّ قبل النكبة. كانت صاحبة اليد الأولى في هذه النهضة، قبل أن تفارق الحياة في عزلتها عام 2012.

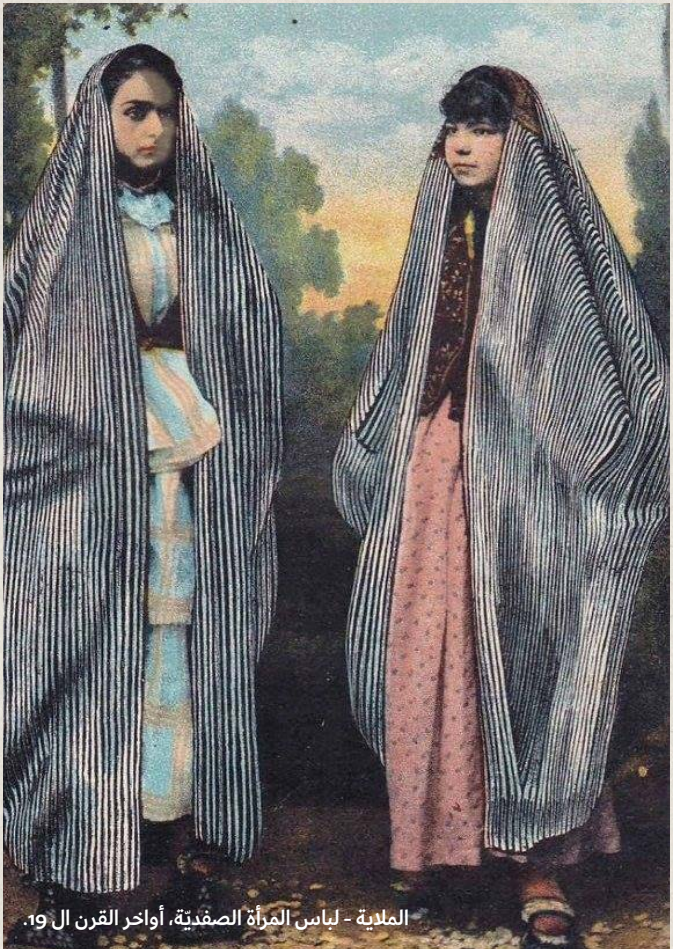

الملاية - لباس المرأة الصفديّة، أواخر القرن ال 19.

المصدر: موقع ذاكرة الوطن

الجزء الثاني

بئر السبع؛ سنبلة الجنوب

نسرين طبري و د. جوني منصور

ينظر البعض إلى منطقة النقب وكأنّها خارج أُطر الحياة العاديّة، أو أنّها بقعة في عالم آخر. لكن المُتَعَمِّق في تاريخ وطبيعةِ حياة المجتمع البدويّ الفلسطينيّ فيها، يُدرك تمامًا سبب تمسّك أهل النقب بأرضهم وتراثهم. تاريخ مدينة بئر السبع العريق وتاريخ المنطقة بأسرها حافل بقصص التحدّي والإبداع، التي تشهد على مقارعة الإنسان للطبيعة والوحوش وجيوش الغزاة. في هذه المادّة سنتناول تاريخ جنوب فلسطين وجغرافيّته والتحوّلات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة التي شهدتها أرض النقب على مرّ السنين.

الموقع، الاسم والمعنى

كلمة "النقب" بالعربيّة تعني "المنطقة الجافة" وتعني أيضًا "الثغرة" أو "الطريق الضيّق في الجبال". النقب هو المنطقة شبه الصحراويّة الممتدّة على جنوب فلسطين المحتلّة. في طرفها الشماليّ تقع مدينة بئر السبع، وحول المدينة تنتشر تجمُّعات وقبائل وقرى ومدن عربيّة بدويّة، يعود تاريخها إلى آلاف السنين.

مدينة بئر السبع أقدم ممّا يعتقد معظمنا، إذ ينسِبُ عددٌ من المؤرّخين والباحثين نشأتها إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أي زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي استقرّ ومن معه في هذه المنطقة، التي كانت معمورة ومزروعة منذ فجر التاريخ. تقول المرويّات الدينيّة إنّ إبراهيم كان يرعى أغنامه في هذه المنطقة، وإنه حفرَ بئرًا لسقي المواشي فيها. ويروى أيضا أنّ النزاع بينه وبين أبيمالك، زعيم تلك الديار، اضطر إبراهيم إلى منحه سبع نعاج من قطيعه تعويضًا، فسميّت البئر وما حولها "بئر السبع" نسبة إلى تلك النعاج. لكنّ رواية أخرى تنسب التسمية إلى آبار المياه السبعة الموجودة في المنطقة. وقد أكّد ياقوت الحمويّ والموسوعة البريطانيّة وجودها فعلًا.

تاريخ بئر السبع والمنطقة

تؤكّد الآثار المكتشفة في المدينة ومحيطها أن حياةٍ بشريّة ازدهرت هناك منذ آلاف السنين، أيّ أنّها تعود إلى الفترة الكنعانيّة في فلسطين. كذلك برز دور بئر السبع في زمن الأنباط والرومان الذين جعلوا منها محطّة للقوافل التجاريّة التي كانت تمرّ عبرها. اتّخذت ثلاثة طرق للقوافل من بئر السبع محطّة لها:

- **الطريق الأوّل**: من العقبة (جنوبًا) إلى بئر السبع مرورًا بالعوجاء والخلصة، ومنها طريق غربيّ يصل غزة، وشرقيّ يصل الخليل.
- **الطريق الثاني**: من العقبة إلى بئر السبع مرورًا بالبتراء وعَبدة والخَلصة.
- **الطريق الثالث**: من بئر السبع إلى ميّة عوض مرورًا بوادي العربة.

تعلّمنا هذه الطرق عن النشاط التجاريّ الواسع الذي ساد في هذه المحطّة التي أنعشت اقتصاد مجتمعات عريقة عاشت وتعاطت التجارة فيها وحولها.

عند انتشار المسيحيّة في فلسطين تحوّلت مدينة بئر السبع إلى أُسقفيّة. أي أنّ عدد الناس فيها كان كبيرًا لدرجة جعلت القيادة الدينيّة المسيحيّة تعيّن لها أُسقفًا. ومن المعروف أن الأديرة ونمط الحياة التنسّكي كان منتشرًا في النقب في القرون الأولى من انتشار المسيحيّة. ولا تزال هناك آثار كنائس وأديرة ومناسك تعود إلى القرن الرابع للميلاد. السبب الرئيسيّ لانتشار حياة التنسّك في منطقة بئر السبع هو بعدها عن مراكز الحكم الرومانيّ، الذي كان يضطهد المسيحيّة في بداياتها، بالإضافة إلى كون الطبيعة الصحراويّة مهد النساك ومنشأ العديد من المدارس الروحانيّة على مرّ التاريخ.

مع توسّع الإمبراطوريّة الإسلاميّة اتخذ عمرو بن العاص من بئر السبع قاعدة استراتيجيّة، وأسكن فيها بعضًا من أهله، وكان له فيها قصر يُعرف بـ"العجلان". وفيها توفّي نجل عمرو بن العاص- عبدالله. ازدهرت بئر السبع في زمن الخلافة الأمويّة كثيرا. على سبيل المثال، كان سليمان بن عبد الملك فيها حين وصله البلاغ بتوليته خليفة على بلاد المسلمين.

لكن سلسلة من التغييرات في مركز الحكم، كانتقاله من دمشق إلى بغداد وتبدُّل طرق التجارة، وتغييرات طبيعيّة كشحّ مياه المطر لسنوات طويلة، أدّت إلى هجرة الكثيرين من سكّانها. بالإضافة إلى ذلك، عند احتلال الصليبيّين لفلسطين وصلوا بيت جبرين واعتقدوا أنّها بئر السبع، وبقيت مدينة بئر السبع مهملة، إلى أن تبدّل المحتلّون وصولًا إلى إدارة الامبراطوريّة العثمانيّة التي قرّرت تأسيس بئر السبع الجديدة في عام 1900. وجعلت منها الدولة العثمانيّة مركزًا إداريًّا للقضاء بعد فصلها عن قضاء غزّة. وبئر السبع هي المدينة الوحيدة التي أسّستها الدولة العثمانيّة طيلة حكمها لفلسطين. وذلك بفضل وفرة المياه فيها، وموقعها على مفترق طرق تجاريّة، وكونها نقطة التقاء للمجتمعات البدويّة في المنطقة.

كانت الحكومة العثمانيّة تشجّع البدو على الاستقرار والسكن في المدينة الحديثة، وسجّلت أراضٍ عديدة بأسماء شيوخ القبائل الكبرى ليكونوا نموذجًا للآخرين. كذلك فعلت الحكومة الانتدابيّة البريطانيّة التي كانت تشجّع الهجرة إلى المدينة وتشغّل الكثير من البدو في أجهزتها الإداريّة المختلفة.

عيّنت الدولة العثمانيّة إسماعيل بك حاكمًا إداريًّا للمنطقة. وهو الذي اتّخذ الخيام مسكنًا ومكتبًا لتسيير إداريّات المدينة والقضاء. ثمّ تولّى القضاء محمّد جار اللّه المقدسيّ الذي ألّف مجلس إدارة القضاء والمجلس البلديّ، وأنشأ دارًا للحكومة وثكنة عسكريّة. وكلّف المهندسان سعيد

إمرأة وطفلاها ينقلون جرار الماء بواسطة حمار. النقب 1898-1946.

المصدر: مكتبة الكونغرس، بواسطة د. أحمد أمارة

وراغب النشاشيبيّ برسم خارطة المدينة الجديدة، فرسماها بتصميم حديث بتأثير الهندسة الألمانيّة بشكل خاص.

ازدهرت مدينة بئر السبع عِمرانًا وجمالًا، وبُني فيها جامع جميل التصميم. وأُنشأت مدرسة لأبناء البدو من طابقين. وشُيّدت عدّة مؤسّسات خدماتيّة كدار البريد والبرق وسوق تجاريّة وسوق أخرى للمواشي.

لعبت المدينة وجوارها دورًا مركزيًّا خلال الحرب العالميّة الأولى، إذ جعلها العثمانيّون قاعدة لجيوشهم المشتركة مع الألمان لقربها من جبهة القتال ضدّ الإنكليز في قناة السويس ومصر. عبّد العثمانيّون الطرقات بين بئر السبع والخليل وسيناء، ومدّوا خطوطًا حديديّة لتسهيل عمليات نقل الجنود والمواد التموينية إلى مواقع في سيناء. وحقّق الجيش العثمانيّ– الألمانيّ المشترك نصرًا في المراحل الأولى من القتال، إلّا أنّ الخطط الحربيّة التي وضعها الجنرال البريطاني أَلِنْبي حقّقت له الغلبة، فسقطت بئر السبع بيده في نهاية تشرين الأوّل/ أكتوبر 1917 وكانت أوّل مدينة فلسطينيّة يحتلُّها الإنكليز. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ الجيش العثماني ضمّ في صفوفه عددًا كبيرًا من أهالي منطقة بئر السبع، الذين قاوموا الاحتلال البريطانيّ ببسالة يشهد لها التاريخ. ووكّلت فرقة تتألّف بكاملها من البدو، بالدفاع عن جبهة القناة وسيناء. وقد ساهمت بطولات الجنود البدو بإعاقة الجيش البريطانيّ عن احتلال بئر السبع ومحيطها. لكنّ الأمراض التي تفشّت بينهم وشحّ المؤن الغذائيّة قتلت العشرات منهم.

اعتمد الإنكليز سياسة جديدة لتوطيد حكمهم في المنطقة بصورة غير مباشرة، عبر تقوية مشايخ القبائل ودمج البدو في أنظمة الدولة المختلفة، كتعيينهم في مناصب مرموقة بإدارة بلديّة بئر السبع، فأضحى بعض مشايخ البدو رؤساء للبلديّة، كالشيخ فريح أبو مدين الذي عُيّن طمعًا بكسب ودّه،

بسبب خضوع القبائل في المنطقة له. كما عيّنوا نوابًا في البلديّة باعتراف كامل من سلطات الانتدابّ البريطانيّ. واعترف الإنكليز أيضا بمحكمة العشائر تعبيرًا عن منح المنطقة شكلاً من الاستقلالية، ورغبة بتخفيف التوتُّر ومنع التمرّد والعصيان.

حرص الإنكليز منذ احتلالهم للمدينة على إلغاء الإدارة العثمانيّة فيها، بمدّ خطّ حديديّ منها إلى رفح لاستعمالات عسكرية ثمّ أُلغي هذا الخطّ لاحقًا. وشرعوا بتنظيم المدينة على الأُسس الإداريّة الجديدة المتّبعة في مستعمراتهم.

شارك أهالي بئر السبع في الثورة الفلسطينيّة بعد أنْ زارها الحاج أمين الحسينيّ في عام 1932 لضمان منع بيع الأراضي لليهود. وبادر الشيخ إبراهيم الصانع إلى دعوة مشايخ القبائل البدويّة إلى اجتماع حول هذا الموضوع. هاجم الثوار عددًا من الثكنات العسكريّة البريطانيّة وسطوا على كميّة كبيرة من الأسلحة والخيول. وكان أشهر هجوم نفّذه المقاومون عام 1938 بقيادة عبد الحليم الجولاني المُلقّب بـ "أبو منصور" وتمكّنوا من احتلال بئر السبع في 9 أيلول/ سبتمبر من العام المذكور وطرد الحامية البريطانيّة منها والاستيلاء على محتويات الثكنة ومراكز الشرطة. إلّا أنّ الإنكليز استعادوها بعد جهود كبيرة لحفظ ماء وجههم.

سكان بئر السبع

تعود أصول سكّان بئر السبع بغالبيّتهم إلى غزّة، المجدل، الخليل والقدس بالإضافة إلى القادمين من القرى والتجمّعات البدويّة. كان قدوم العرب البدو إليها حذرًا وبطيئًا بسبب توجّسهم، إلّا أنّ الكثير من زعماء العشائر البدوية أقاموا لهم في المدينة عددًا من البيوت والمصالح التجاريّة والحرفيّة.

بلغ عدد سكّان مدينة وقضاء بئر السبع في نهاية العهد العثمانيّ نحو 55 ألف نسمة. في حين لم يتجاوز تعداد سكّان المدينة ذاتها الألف نسمة في نهاية

هذا العهد. ويفيد أوّل إحصاء انتدابيّ أجري عام 1922 بإنّ تعداد سكان المدينة بلغ 2,356 نسمة، وارتفع في إحصاء عام 1931 إلى 2,959 نسمة ليصل في العام 1945 إلى نحو 5,570 نسمة. بلغت مساحة مدينة بئر السبع 3,890 دونمًا، ومساحة القضاء 12 مليون و477 ألف دونم. أمّا عدد السكان الإجماليّ في القضاء عشية النكبة فقد تجاوز المائة ألف نسمة. في عام 1948 لم يبقَ منهم سوى أحد عشر ألفًا.

تتفاوت الأرقام الإحصائيّة لصعوبة حصرها بسبب طبيعة المنطقة الجغرافيّة، إلاّ أنّ الانتشار البشريّ فيها يدلّ على أنّ المنطقة لم تكن خالية من العرب الذين سكنوها منذ آلاف السنين بشكل متواصل، ما يدحض الدعاية الصهيونيّة التي تزعم أنّ المنطقة كانت خالية. فبالرغم من بيئتها الصحراويّة أحسن الناس التأقلم معها والتعايش مع مكوّناتها.

توزّعت القبائل البدويّة في النقب على مجموعتين: الأولى تضمّ قبائل التياها والترابين والجبارات والحناجرة، التي تركّزت في شمال النقب. أما المجموعة الثانية فكانت من العزازمة والسعيديّين والأحيوات، وانتشرت من الوسط حتّى الجنوب قريبًا من العقبة. وتضمّ كلّ قبيلة عدّة عشائر، تعتبر عشيرة الترابين أكبرها.

الحياة الاقتصاديّة

اعتمد سكّان قضاء بئر السبع على رعاية المواشي، ما دعاهم إلى التنقل في مناطق نفوذ قبائلهم التي عرفها كلّ البدو. كذلك عملوا في زراعة الحبوب، كالشعير والحنطة والذرة والبطّيخ، وقليل من السمسم والكرسنة. وكانت هناك مناطق محدّدة لزراعة التبغ، المعروف في أوساط البدو بـ "الهيشي"، ثمّ أُتيح المجال لزراعته في كل المناطق.

وأدرك شيوخ العشائر أهميّة تحسين زراعة الحبوب لبيعها في الأسواق المحليّة وتصديرها إلى الخارج أيضا، خاصّة الشعير، الذي كان يصدّر إلى بريطانيا، ليستعمل في مصانع البيرة هناك.

شهدت الحياة الاقتصاديّة تحوّلات جذريّة في عدد من المواقع القريبة من بئر السبع خلال الحرب العالميّة الثانية، إذ اتّخذ الإنكليز من المدينة ومحيطها قواعد عسكريّة مهمّة لتوفير الحماية لمنطقة القناة وسيناء، والمرافق الرئيسيّة العسكريّة المدنيّة في فلسطين.

دفعت إقامة القواعد العسكريّة البريطانيّة في منطقة بئر السبع بالكثير من البدو إلى العمل فيها، وإلى انتقال عدد من شيوخهم للسكن في بئر السبع وتجارة مستلزمات المعيشة لتلك القواعد العسكريّة.

كانت الأسواق التجاريّة تقام في بئر السبع والمجدل والفالوجة وغزّة وخان يونس، ويفدها التجّار من العشائر البدويّة في المنطقة لعقد الصفقات مع التجّار من خارجها. كما كان تجّار المواشي من البدو في منطقة السبع يتاجرون بمواشيهم مع تجّار من شرقي الأردن.

تركت هذه التحوّلات الاقتصاديّة ظلالها على أشكال السكن في المنطقة، ففي حين كان معظم البدو يعيشون في بيوت الشعر أو الطين، بدأت حركة من التحوّل إلى القرى العشائريّة، ممّا يشير إلى الاستقرار السكنيّ والاقتصاديّ. وشهدت القرى العشائريّة تحسّنا في الأنواع الزراعيّة فيها، فانتشرت كروم العنب في النقب الشماليّ، وشمالي بئر السبع بشكل خاص. وكان عنب النقب ينافس أجود أنواع العنب في الأسواق المحليّة. إلاّ أنّ احتلال الصهاينة للمنطقة ونكبة أهلها لم يبقيا على أيّ شكل من هذا التطور والنمو الذي بلغته المنطقة بفضل قدرة أهلها على التأقلم معها رغم قسوة بيئتها.

المرأة ودورها الاجتماعيّ والاقتصاديّ

امتازت نساء النقب بالقوّة وقدرة التحمّل. كانت أدوارها في الحياة اليوميّة متعدّدة، من تربية الأبناء والعناية بهم وتولّي الأشغال المنزليّة، إلى العمل في الحقول والمشاركة في رعاية المواشي. كما انتشر غزل الصوف في السنوات الأخيرة من العهد العثمانيّ، وزاد في عهد الانتداب البريطانيّ. ولم يقتصر الإنتاج على تلبية الحاجة العائليّة، بل ملأ الأسواق المحليّة ووصل

أسواق غزّة وشرقيّ الأردن. واستعانت نساء النقب في ذلك بصوف الماعز والأغنام ووبر الجمال، وكان لهنّ دور كبير في دعم اقتصاد عوائلهنّ. اشتهرت بئر السبع بثوبها المعروف بـ "السبعاويّ" ويُسمّى أيضًا بـ "التّوبيت" وهو ثوب يتميّز بتطريز فلسطينيّ شديد الكثافة على جانبيه وقبّتِه وردفتيه الأماميّة والخلفيّة.

تركّزت صناعة الثوب السبعاويّ واستعماله في منطقة النقب، وكان يخضع لمعايير قديمة يُعتبر الخروج عنها انتهاكًا للعادات والتقاليد. فمثلًا تميّز زيّ الفتيات العازبات السبعاويّ بلونه الأسود المزركش بالأزرق فقط، بينما ثوب المتزوّجة كان متعدّد الألوان، ولا حرج في أن تكون ألوانه زاهية. ويعود هذا التمييز إلى كون المتزوّجة أكثر اندماجًا في المجتمع من العزباء، وإلى حرص المجتمع البدويّ على الحفاظ على فروق اجتماعيّة بين المتزوجة وغير المتزوجة. وهناك ثوب خاصّ بالأرامل، ويتميّز بزركشات بالخيوط الزرقاء الجنزاريّة والمرقّطة أو الزخارف المنمنمة التي غالبًا ما تكون بالخيوط الخضراء. وأخيرا كان هناك ثوب العجوز، المخصّص للمرأة التي تجاوزت الستين، ويتميّز بالخيوط الزرقاء الجنزاريّة.

إمرأة بدويّة من جنوب فلسطين

المصدر: مكتبة الكونغرس، بواسطة د. أحمد أمارة

مساجد وكنائس النقب

شُيِّد **المسجد الكبير** في بئر السبع، في أواخر العهد العثمانيّ، بأموال تبرّعات من شيوخ القبائل العربيّة في المنطقة. وفي نفس الفترة تقريبًا شُيِّدت **الكنيسة الأرثوذكسيّة**. في عام 1910 بـنت البـعثة الإنجيـليّة الأمريـكيّة **الكنيسة الإنجيليّة**. وفي عام 1931 بنى الحاج عيسى بسيسو **المسجد الصغير**، للمصلّين في المدينة.

التعليم والثقافة

في بئر السبع وقرى العشائر

بادرت الدولة العثمانيّة إلى بناء مدرسة في مدينة بئر السبع مؤلّفة من طابقين، تعلّم فيها أبناء المدينة وبعض أبناء العشائر البدويّة المحيطة بها. لكنّ الإنكليز عند احتلال المدينة، خصّصوا الطابق العلويّ من بناية المدرسة للبنات، والطابق الأرضيّ للبنين. وبقي الحال على ذلك حتّى عام 1934، حينها قرّرت إدارة معارف الانتداب تحويل الطابق العلويّ إلى قسم داخليّ للطلاب البدو الذين ازداد عددهم مع مرور السنين، ونُقلت مدرسة البنات إلى بناية مستأجرة.

وتشير الإحصائيّات إلى زيادة مطردة في إقبال أهالي المنطقة على إرسال أولادهم إلى المدرسة. إذ بلغ عدد الطلاب الإجماليّ في عام 1920 نحو 180 طالبًا، في حين بلغ عددهم في العام الدراسي الأخير قبل النكبة نحو 580 طالبًا. وكان يعلّمهم 17 معلمًا، من الصفّ الأوّل حتّى السابع، في شعبتين لكلّ صفّ. وأضيف الصفّ الأوّل الثانوي للمدرسة في مرحلة لاحقة. في مطلع الأربعينيّات من القرن الماضي، أضافت إدارة بلديّة بئر السبع ستّ غرف تدريسيّة جديدة لاحتواء الزيادة في إقبال الطلاب على التعلُّم فيها. تدلّ هذه الأرقام بشكل قاطع على تزايد أعداد المتعلّمين في بئر السبع وقرى العشائر. كانت المدرسة مبنيّة على أرض مساحتها عشرين دونمًا، خُصّصت سبعة دونمات منها لحديقة المدرسة، التي كان الطلاب يتدرّبون

فيها على أنواع الزراعة وطرق الريّ وما إلى ذلك. وكانت في المدرسة مكتبة بلغ عدد الكتب والمجلات فيها نحو 1,500.

أمّا مدرسة البنات فقد باشرت البلديّة في بنائها في عام 1946 على أرض بلغت مساحتها 13 دونمًا. أنشئت فيها 7 غرف تعليميّة بالإضافة إلى غرف الإدارة والمعلّمين والمكتبة. بلغ عدد الطالبات اللاتي التحقن بهذه المدرسة في العام الدراسيّ 1932/1931 نحو 160 طالبة، تعلّمهن أربع معلمات. وارتفع العدد ليصل في العام الدراسيّ الأخير قبل النكبة إلى 300 طالبة تقريبًا، موزّعات على صفوف المرحلة الابتدائيّة من الأوّل إلى السابع، تعلّمهن تسع معلّمات. أمّا مكتبة مدرسة البنات فكانت تحمل على رفوفها أكثر من 650 عنوانًا من الكتب والمجلّات والنشرات.

ونتيجة الإقبال على التعليم وتحسُّن الوضع الاقتصادي بشكل عام في بئر السبع وزيادة عدد سكانها، تشكّلت لجنة خاصة بمبادرة الأهالي، لفتح بستان للأطفال في العام الدراسيّ 1946. وبلغ عدد الأطفال فيه من بنين وبنات في العام الدراسيّ الأخير قبل النكبة نحو 90 طفلًا، ترعاهم حاضنتان.

أمّا مدارس العشائر البدويّة فكانت عديدة، نورد هنا أسماء وتفاصيل بعض منها لتوثيق حضورها وإقبال أبناء العشائر على ارتيادها. لقبيلة الحناجرة التي انتشرت جنوب شرق غزّة مدرسة عُرفت باسم "مدرسة حناجرة أبي مدين" وهي ابتدائيّة حتى الصف الرابع. بلغ عدد طلّابها 75 طالبًا يعلّمهم معلّم واحد. ومدرسة النصيرات القريبة من دير البلح تأسّست في عام 1944، وبلغ عدد طلّابها 70 طالبًا تقريبا. وتُشير الاحصائيّات إلى ارتفاع ملحوظ في نسبة القادرين على القراءة والكتابة في أوساط هذه العشيرة.

عشيرة الجبارات القريبة من بلدة الفالوجة كانت لها مدرستان رسميّتان، ومدرسة للقبيلة ذاتها. "مدرسة الدّقس" الرسميّة تأسّست في عام 1925، وبلغ عدد طلابها نحو 55 طالبًا، ولهم معلم واحد، و"مدرسة أبي جابر" شمال غربيّ بئر السبع على بُعد 42 كم، تأسّست في عام 1944 وتعلّم فيها 60 طالبًا تقريبًا، ولهم معلّم واحد.

أمّا مدرسة القبيلة التي حملت اسم "الثوابتة" فتأسّست في عام 1945 وانتسب إليها 45 طالبًا تقريبا، وكان لهم معلّم واحد، يدفع أجره أهل القبيلة ذاتها.

في الترابين أسّست المعارف الانتدابيّة خمس مدارس، بينما أسّست القبيلة ثلاث مدارس على نفقتها. مدرسة "المعين أبو ستة" أسّستها المعارف البريطانيّة عام 1924 وتعلّم فيها 75 طالبًا، مع معلّمَين على نفقة الحكومة. مدرسة "الشعوث" تأسّست في عام 1945 وكانت تضمّ خمسين طالبًا، يعلّمهم معلّم واحد. مدرسة "أبو معيلق" جنوبيّ غزّة تأسّست في عام 1940، ودرس فيها 45 طالبًا، مع معلّم واحد. مدرسة "الزريعي" تأسّست في عام 1925 وفيها 75 طالبًا ومعلّمان. مدرسة "أبو غليون" تأسّست في غربيّ بئر السبع عام 1922 وبلغ عدد طلّابها 125، عليهم معلّمان على نفقة الحكومة.

كذلك أسّست القبيلة ذاتها ثلاث مدارس على نفقة أهلها وهي: مدرسة "أبو الحصين" في العام 1947 وفيها 55 طالبًا، مدرسة "أبو يحيى" في عام 1944 وفيها 55 طالبًا، ومدرسة "العمارة" في عام 1945 وفيها 70 طالبًا تقريبًا.

أمّا قبيلة التيّاها فلها تسع مدارس، اثنتان حكوميّتان هما مدرسة "أبو الحاج" ومدرسة "الهزيّل" شمال غربيّ السبع في موقع يعرف باسم "زُبالة"، بالإضافة إليهما كانت للقبيلة عدّة مدارس على نفقتها وهي: "الشلالين"، "البها"، "القديرات"، "الجمامة"، "خويلفة" ومدرسة "عرعرة". كانت هذه المدارس تضمّ 200 طالبًا تقريبا. كما كانت هناك أربع مدارس لقبيلة العزازمة على نفقتها الخاصة، وهي: مدرسة "الخَلصة" القريبة من عسلوج، ومدرسة "العوجاء" جنوب غرب بئر السبع، ومدرسة "عسلوج" التي تأسّست في عام 1944، ومدرسة "الخزعلي". درس في هذه المدارس 125 طالبًا.

هذه المدارس وهذه الأرقام تشير إلى أنّ المنطقة الشماليّة من النقب وتحديدًا المحيطة ببئر السبع والقريبة من غزّة ورفح شهدت تحوّلات على صعيد التعليم مع نهاية الحكم العثمانيّ وفي فترة الانتداب البريطانيّ. مبادرات العشائر ذاتها إلى إنشاء مدارس ودفع الأبناء والبنات إلى التعلّم على نفقتها، دليل قاطع على اهتمام عرب هذه المنطقة بالتعليم ورفع مستوى الحياة الاجتماعيّة فيها. بالنسبة لتعليم البنات فإن مدارس بئر السبع

بشكل خاص ومدارس القرى العشائريّة عامّة شهدت إقبالًا كبيرًا للإناث على التعليم، وكانت ظاهرة لافتة في بيئة تسودها الذكوريّة، التي لا تزال طاغية على المشهد العام بامتياز، وكانت هذه خطوة مهمّة نحو تحسين حياة الفتيات الاجتماعيّة.

المشهد الثقافيّ - بوادر الثقافة في النقب

على صعيد المشهد الثقافيّ في بئر السبع، أصدر جمال باشا، الملقب بـ "السفاح" وهو حاكم فلسطين العثمانيّ في عام 1916، أوّل صحيفة مُصوّرة في المنطقة، سمّاها "صحيفة الصحراء" وكانت تُطبع في بئر السبع والقدس، وصدر عددها الأوّل في تشرين الثاني/ نوفمبر 1916. وكانت الصحيفة تعرّف نفسها على أنّها نشرة سياسيّة اجتماعيّة أدبيّة وفنيّة، وبالفعل كانت تنشر أخبارًا ومقالات في هذه المجالات، بالإضافة إلى مقالات عن البداوة وحياة الصحراء، وبلغ عدد مشتركيها في عام 1917 نحو 800 مشترك. في أيّار/ مايو 1917 صدر عددها الأخير وتوقّفت بعده. وتعتبر "الصحراء" آخر صحيفة منحتها السلطات العثمانيّة الترخيص. في فترة الانتداب البريطانيّ بادر عدد من أهالي بئر السبع إلى تأسيس فرقة كشفيّة بنفس الاسم "الصحراء" وكانت تقدّم عروضًا مسرحيّة، بالإضافة إلى نشاطاتها الكشفية. قدّمت "الصحراء" في أيلول/ سبتمبر 1935 مسرحيّة "ذي قار" أو "انتصار العرب" على الفرس، على مسرح فرقة كشافة سعد بن أبي وقاص.

النكبة والتهجير والحكم العسكريّ

سقطت بئر السبع تحت الاحتلال الصهيونيّ مع كلّ النقب من شماله وحتى جنوبه في إيلة – أم الرشراش، التي تعرف اليوم بمدينة إيلات الإسرائيليّة، في نهاية تشرين الأوّل/ أكتوبر من عام 1948. طردت العصابات الصهيونيّة أكثر من 75% من السكان العرب، كما فعلت في سائر مناطق فلسطين. أما مدينة بئر السبع فأُفرغت تمامًا من سكّانها، حتى بضع العشرات الذين بقوا

فيها، طُردوا في وقت لاحق. كان تحويلها إلى مدينة يهوديّة فوريًّا، لتصبح مركز المنطقة الجنوبيّة الخاضعة للاحتلال الصهيونيّ. ارتكبت العصابات الصهيونيّة في النقب سلسلة من المجازر ضمن خطّة بث الرعب لتهجير المتمسّكين بأرضهم وتعجيل نزوحهم، حتى أنّ مدينة بئر السبع وبعض مضارب البدو القريبة منها تعرّضت إلى قصفٍ جويّ من طيران هذه العصابات.

لم يتوقف التهجير عند عقد الهُدنة مع مصر والدول العربيّة، بل استمرّت ونراها تضرب بأهل النقب حتّى يومنا هذا، كما هو الحال في قرية العراقيب مسلوبة الاعتراف التي تجاوز عدد مرّات هدمها المئتين مرّة. كما أنّ دولة اليهود لم تمنح البدو الباقين على أرضهم المحتّلة الجنسيّة حتّى عام 1952 لتسهيل الطرد المنهجيّ، الذي استمرّ حتى عام 1959 عند تدخّل الأمم المتحدة لوقفه. ومن المجازر التي حفرت في ذاكرة النقب تلك التي استهدفت قبيلة العزازمة في أيلول/ سبتمبر 1953 وقتل فيها عشرات الأطفال والنساء، وأُحرقت الخيام لمنع العودة. تولّت ارتكاب هذه المجزرة عصابة صهيونيّة تعرف ب"الوحدة 101" التي كان يقودها أريئيل شارون.

نكبة مستمرّة

لم يتجاوز عدد البدو الذين تمسكّوا بأراضيهم في المنطقة رغم القتل والترهيب، البضعة آلاف. حصرتهم العصابات الصهيونيّة في "منطقة السياج" أو "المنطقة المغلقة". ونُقل الباقون في المنطقة الغربيّة القريبة من الحدود المصريّة إلى المناطق الشرقيّة القريبة من الحدود الأردنيّة. وفُرِض الحكم العسكريّ الذي منعهم من التنقّل لأكثر من 15 عامًا.

جاء ترحيل عرب النقب بذرائع أمنيّة، على حدّ تصريح حكومات الاحتلال، وسرعان ما استولت دائرة أراضي إسرائيل على أراضيهم، وتفشّت فيها المستوطنات والقواعد الحربيّة مباشرة. شرّعت الحكومات الصهيونيّة السرقة بقانون يجيز الاستحواذ على أملاك الغائبين. حتّى الذين بقوا ورُحّلوا عنها إلى مناطق أخرى اعتبرهم القانون الجائر في عِداد الغائبين. على نقيض سلطات

الانتداب البريطانيّ التي اعترفت بملكيّة العرب البدو لأراضيهم، تنكر الحكومات الصهيونيّة المتتالية هذه الملكيّة ولا تعترف بالتجمّعات البدويّة عليها ولا تقدّم لها خدمات المواطنة الأساسيّة، كالمياه الجارية والكهرباء والتعليم والخدمات الصحيّة. وتركت عمليّات الترحيل وتدمير القرى البدويّة آثارًا مدمّرة على الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والتعليميّة، أحبطت النهضة التي شهدتها بئر السبع والنقب عامة، في هذه الميادين خلال العقود الأخيرة التي سبقت نكبة فلسطين وقيام دولة إسرائيل على أنقاضها.

تخريب وتهجير بطيء ومنهجيّ

إلى جانب الدمار والتهجير مزّقت النكبة النسيج الاجتماعيّ لعرب النقب الذي عاشوا بموجبه منذ آلاف السنين، فتحوّلت حياتهم إلى صراع دائم مع الدولة المحتلّة، صراع في مركزه الأرض والحقّ في العيش عليها حياة طبيعيّة وكريمة. لم تعترف إسرائيل بالتجمّعات البدويّة خارج منطقة السياج إلاّ بعضها وبعد جهود سياسيّة وقانونيّة استمرّت عشرات السنين واستنفذت طاقات بشريّة وماليّة هائلة. ولا تزال الدولة اليهوديّة تسعى بوضع المخطّطات وسنّ القوانين، إلى تجميع العشائر البدويّة المختلفة وحصرها في كانتونات ضيّقة تسمّيها قرى ومدن بدويّة، بحجّة تنظيم السكن في النقب، ومن جهة أخرى تقيم على أراضيهم المستوطنات، وتمنح دونومات شاسعة لمجموعات صهيونيّة صغيرة، وفي كثير من الأحيان تمنحها لأفراد ليقيموا عليها مزارع ومصالح تجاريّة وحتّى فنادق للكلاب، كما يجري في قضيّة تهجير أم الحيران وإقامة مستوطنة حيران على أرضها، وعلى بعد أمتار منها على أراضيها المسروقة، تنعم كلاب البوكسر بالرعاية والعيش الكريم في فندق مخصّص لهذا النوع من الكلاب ريثما يعود أصحابها من أشغالهم أو سفرهم.

عانت المرأة في النقب الأمرّين جراء ما حلّ بقبيلتها وبيتها وأُسرتها في عام النكبة. فقد تضاعف ضغط ومسؤوليّة حماية الأطفال بعد تقطّع أوصال الروابط الاجتماعية العشائريّة. عائلات كثيرة فقدت معيلها مجبرة النساء على السعي وراء لقمة العيش لأيتامهنّ. كان هذا مصير الكثير من النساء الباقيات في أراضيهنّ والمهجّرات عنها. تولّت المرأة البدويّة دور إعادة البناء والتشكيل الأسريّ مع زوجها وإخوانها، حتّى في مواقع اللجوء أو النزوح الداخليّ.

النقب بعد الاحتلال الصهيونيّ

ما يعيشه سكّان النقب منذ عام 1948 حتّى اليوم يرتبط عضويًّا بفكر الحركة الصهيونيّة العنصريّ المدرج في مخطّطاتها، التي يمكننا فهمها من قول بن غوريون "في النقب يُمتحن الشعب الإسرائيليّ ودولته". قطن ديار السبع قبل النكبة قرابة المئة ألف عربيّ، سكن 89% منهم في مدينة بئر السبع وفي 86 قرية، في بيوت الشعر والطين وبعض بيوت الطوب. اعتبر بن غوريون تفريغ النقب من سكّانه الأصليّين وإبقاء ما لا يزيد عن عشرة آلاف منهم ضرورة.

سنّ الكنيست الإسرائيليّ العديد من القوانين العنصريّة التهويديّة بين العامين 1948 و1966؛ كقانون أملاك الدولة عام 1951، واستملاك الأرض عام 1953، ليتبعها تسجيل تسعة ملايين دونم من أراضي النقب الجنوبيّ والإعلان عنها منطقة عسكريّة عام 1960. وحصر أكبر عدد من السكان في منطقة أطلق عليها اسم "السياج"، فكان هذا التركيز الأوّل على طريق التفريغ.

أما التركيز الثاني فأقرّ عام 1962، وجاء تنفيذًا لاستراتيجيّة تركيز أكبر عدد من العرب على أقلّ مساحة من الأرض، ونشر أقلّ عدد من اليهود على أكبر مساحة من الأرض. ولم يقتصر الأمر على تهويد الأرض، بل فرض الصهاينة على السكّان نوعًا من "التحديث" يضرب الجماعات والأفراد، ويمزّق الهويّة الجمعيّة ويدفع بالمجتمع البدويّ نحو الانهيار.

أقامت السلطات الحكوميّة بموجب هذه الاستراتيجيّة سبع تجمّعات سكانيّة لتركيز العرب البدو فيها وهي؛ تلّ السبع، رهط، عرعرة النقب، كسيفة، شقيب السلام، حورة واللقيّة. رُحّل البعض للسكن في هذه البلدات بينما رفض ما يقارب مئة ألف منهم الانصياع للمخطّط وبقوا في قراهم التي بلغ عددها 46 قرية. تنكّر الاحتلال لكلّ هذه القرى ولم يعترف بها، فلم تظهر في الخرائط التي وضعت عام 1965 ضمن قانون التخطيط والبناء، وبقيت القرى في حالة "الحاضر الغائب" حتى يومنا هذا، وتعرف إسرائيليًّا باسم القرى غير المعترف بها.

في سنوات ال2000 ، وبعد نضال أسطوريّ طويل السنين، اعترفت الحكومة الإسرائيليّة بإحدى عشر قرية بدويّة من أصل 46 اعترافًا شكليًّا. إذ لا تزال هذه القرى تفتقر إلى الحدّ الأدنى من مقوّمات الحياة، ويعيش أصحاب الأرض الأصليّون اليوم في ظروف قاهرة. رغم بعض الاختلافات الطفيفة في وضع هذه القرى مقارنة بال35 قرية التي لم تعترف بها إسرائيل حتّى اليوم، تواجه القرى"المعترف بها" المصير ذاته، حيث أنها معرّضة لخطر الإخلاء والاقتلاع في أي وقت، ولا يستطيع الأهالي الحصول على تراخيص للبناء، ويعانون من هدم البيوت بوتيرة أعلى بكثير من أيّ منطقة أخرى في البلاد والعالم. كما تفتقر هذه القرى إلى البنية التحتيّة، فالبيوت محرومة من خدمات منتظمة للمياه الجارية والكهرباء. ولا يحصل السكّان على الماء إلا من النقاط المركزيّة التي تبعد عدّة كيلومترات عن البيوت، ممّا ينتقص من جودة المياه ويرفع تكلفتها. كذلك تفتقر هذه القرى إلى الخدمات الصحيّة فلا توجد سوى أربع عيادات تخدم 35 قرية. لن تجد في القرى منزوعة الاعتراف شوارع معبّدة تقريبا، ولا تصل المواصلات العامّة غالبيّتها، ما يعيق الوصول إلى أماكن الدراسة والعمل. لذلك نجد أنّ ما يقارب 4,000 طفل في سنّ الطفولة المبكّرة (3-5 سنوات) لا يذهبون إلى الأطر التربويّة رغم قانون التعليم الإلزاميّ، حسب إحصائيّات عام 2018. كذلك نجد أن نسبة تسرّب طلاب المدارس تصل ال25%، ولا ينهي 24.6% من طلاب في النقب تعليمهم الثانويّ .

الشلل والعمل

يضطرّ أهالي القرى غير المعترف بها للعمل خارج بلداتهم، نتيجة انعدام فرص العمل ورداءة البنى التحتيّة، وهذه الإمكانيّة غير متاحة للجميع لعدم توفّر المواصلات العامّة التي تقلهم إلى بئر السبع أو غيرها من أماكن العمل. نتيجة ذلك هي البطالة العالية، حيث أنّ نسبة الرجال العاملين هي 72% فقط، ولا تزيد عن 34 % وسط النساء، الأمر الذي يفسّر الأوضاع الاقتصاديّة المتدنيّة في البلدات البدويّة في النقب، التي تعتبر الأسوأ في البلاد، إذ يقبع ثلثا سكّان النقب العرب تحت خطّ الفقر.

تحاول السلطات الإسرائيليّة منذ عام 1948 وحتّى اليوم إظهار النقب على أنّه صحراء قاحلة، تسكنها بضع عشائر من البدو الرحّل، تنقل مضاربها في اتجاه الكلأ (د. منصور نصاصرة)* وهذا مخالف للحقيقة تمامًا، فنسبة البدو الرحّل عام 1948 هي أقل من 11%. كما أنّ إعادة العثمانيّين لبناء بئر السبع في مطلع القرن التاسع عشر على غرار المدن العثمانيّة جعلت منها مركزًا اقتصاديًّا لعشرات القرى الثابتة في محيطها ومركزًا إداريًّا لجنوب فلسطين، فيه السرايا ومحطّة قطارات تصل سيناء جنوبا ويافا وحيفا شمالًا بالسكك الحديديّة. بالإضافة إلى خصوبة الأراضي ووفرة معادن الفوسفات فيها، التي أثارت مطامع الاحتلال الإسرائيليّ فيها، وما يؤكّده قول بن غوريون "من الصعب إقامة الدولة اليهوديّة بدون صحراء النقب".

أسماء القرى مسلوبة الاعتراف

الجرّة، أم متنان، العراقيب، أبو تلول، عبدة، رخمة، السدير، كحلة، صواوين، بير هدّاج، قصر السر، أمّ نميلة، الفرعة، السيد، أمّ بطين، خشم زنّة، غزّة، الزرنوق، الشهبي، المزرعة، القرين، تلّ عراد، بير المشاش، وادي المشاش، عمرة، السر، عوجان، تلاع رشيد، قطامات/ المطهر، بير الحمام، وادي النعم، المكيمن، الغراء، الباطل/ كركور، خربة الوطن، تل الملح، الزعرورة، المساعديّة، عتير– أمّ الحيران، البحيرة، أمّ رتام، باط الصراعيّة، باط، الدريجات، خربة السبالة، سعوة، الحمرة، السرّة.

أعلام من أرض النقب

فيما يلي بعض الشخصيّات التي ساهمت في المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ، ممّن عاشوا في بئر السبع ومنطقتها قبل النكبة.

* https://al-akhbar.com/Literature_Arts/268085

عيد الصانع

1892-1932 هو الشهيد عيد سليمان عيد الصانع التُرباني، وهو ابن بئر السبع المقاوم الذي اشتهر بلقب "هبوب الريح"، واستشهد في منطقة الجبيبات من أراضي الترابين، بمعركة ضارية خاضها ضدّ مجموعة كبيرة من عناصر الجيش والشرطة الإنكليزيّة بعد محاصرته مع عصبة من رفاقه المقاتلين ورفضه الاستسلام، فأحكموا عليه الحصار، لكنّه واصل القتال مع رفاقه حتى آخر رصاصة. وكان عيد الصانع قد أسّس مجموعة جهاديّة من أبناء القبائل، لمقاومة الاستعمار في منطقة بئر السبع، فكانوا ينصبون الكمائن للإنكليز ويشنّون عليهم هجمات في جميع ثكناتهم ومواقعهم العسكريّة، تكبّد المحتلّين خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد. وكان عيد الصانع يختفي بعد كل عمليّة بسرعة خاطفة، أكسبته لقب هبوب الريح. ويعرف جيل السبعينيّات هذا الاسم جيّدا من المسلسل التلفزيوني الأردني"هبوب الريح" الذي كان يبثّ عام 1985، ليروي حكاية هذا المقاوم وبسالة نضاله ضد الاستعمار البريطانيّ والمشروع الصهيونيّ الذي يمهّد له.

سعيد صالح العشي

ولد في بئر السبع عام 1905. عمل في شرطة الانتداب البريطانيّ، وعيّن مديرًا لمحطّة شرطة المجدل. وهناك ساعد بتسهيل تهريب السلاح والموارد للثوار خلال الثورة الفلسطينيّة الكبرى عام 1936. وكان يساعد مجموعات من الثوار في تنقلاتهم وتحرّكاتهم سرًّا. استقال من وظيفته في 1947 بعد أنْ توضّحت صورة الصراع في أعقاب صدور قرار التقسيم، وانضمّ إلى المقاومين بشكل مباشر. اعترض طرق عدد من المصفّحات والآليات العسكريّة الصهيونيّة، وشارك في تركيب الألغام والعبوات الناسفة. واستشهد أثناء محاولته تفكيك لغم قرب مطار غزّة.

جميل عياد الوحيدي

1930-2005، ولد في قضاء بئر السبع، في أراضي عشيرة الوُحَيدات جنوبي قرية الفالوجة. وكان شاعرًا ومقاومًا درس في مدرسة العشيرة الابتدائيّة

وأكمل الثانويّة في مدرسة المجدل، ومن ثمّ في الكليّة الإبراهيميّة في القدس. شارك في معارك النقب ووقع في أسر العصابات الصهيونيّة عام 1948. انتقل مع عائلته إلى الأردن حيث تابع دراسته وعمل في قطاع التعليم وكتب القصائد. ترك لنا عددًا من دواوين الشعر ومؤلّفات أخرى.

حليمة سالم العايد (أو العيّاد)

1893-2012، وُلدت وتعلّمت في بئر السبع، ثمّ سافرت إلى مصر ودرست الطب، وتابعت تعليمها في استنبول. عادت إلى فلسطين في أواخر الحرب العالميّة الأولى وشاركت في معركة بئر السبع ضمن سلاح الطب والإسعاف العثمانيّ. التقت في تركيّا هناك الطبيب توفيق كنعان الذي قدّمت له في وقت لاحق مجموعة كبيرة من مقتنيات المتحف الذي كان بحوزة عشيرتها قبل النكبة، خشية وقوعه بأيدي الصهاينة، الذي كان يعني اختفاء واحد من أهمّ أعلام الموروث الحضاريّ العربيّ البدوي في النقب. تمكّنت من تهريب بعض مقتنياتها إلى أقاربها في سيناء بعد النكبة. وحملت معها مجموعة كبيرة إلى غزّة، حيث كان مستقرّ لجوئها، إلى أن انتقلت للعيش في الأردن.

الشيخ حمّاد بن محمد بن حمدان الصوفي

1793 - 1923، هو شيخ قبيلة الترابين وشيخ مشايخ بئر السبع ومنطقتها قاطبة. عيّنه السلطان العثمانيّ عبد الحميد أميرًا على جنوب فلسطين، أي مناطق بئر السبع وغزّة وسيناء، ثم رئيسًا للبلديّة في عام 1913. وكان أيضًا قائد الفرقة السابعة والعشرين في الجيش العثمانيّ. قاد الحملة العثمانيّة على قناة السويس وسيناء لمواجهة الجيش البريطانيّ في الحرب العالميّة الأولى. عاش قرابة 130 عامًا، حسب المصادر التاريخيّة. له دور هام في تأسيس مدينة بئر السبع والإشراف على عدد من مشاريعها العمرانيّة.

الشيخ فريح فرحان أبو مدين

1887-1955، هو شيخ قبيلة الحناجرة في منطقة السبع وشيخ مشايخ بئر السبع. عُيّن عضوًا في مجلس إدارة بئر السبع في العصر العثمانيّ قبل الحرب

العالميّة الأولى. ثمّ صار مأمور جباية الحبوب للجيش العثمانيّ. كان له معارف وأصدقاء في الإدارة الإنكليزيّة، فعُيّن رئيسًا لبلدية بئر السبع عام 1922، ومنحته الحكومة الانتدابيّة وسام الإمبراطوريّة من درجة عضو فخريّ. كما عُيّن عضوًا في المجلس الاستشاريّ الذي أنشئ في زمن المندوب السامي الأوّل في فلسطين، وعضوًا في محكمة العشائر. انتقلت مشيختهم بعد سنة 1948 إلى قطاع غزّة، وفي زمن الإدراة المصريّة منحه الرئيس المصريّ جمال عبد الناصر لقب "المواطن العربيّ الأول".

سلمان أبو ستة

مهندس وباحث فلسطينيّ، ولد في معين أبو ستّة، قضاء بئر السبع عام 1937. ويعدّ من أكثر الباحثين ارتباطا بقضايا اللاجئين الفلسطينيّين وحقّ العودة. تلقّى تعليمه الابتدائيّ في قريته، ثم هُجّرت عائلته إلى غزّة في عام النكبة. أقام مؤسّسة الأرض وحقّ العودة في لندن. حصل على البكالوريوس في الهندسة المدنيّة من جامعة القاهرة عام 1959 وعلى الدكتوراه في الهندسة المدنيّة من جامعة لندن عام 1964. عضو في جمعيّة المهندسين الإنشائيّين البريطانيّة وجمعيّة أونتاريو للمهندسين في كندا والجمعيّة الأميركيّة للمهندسين المدنيّين، وعضو سابق في معهد التحكيم البريطانيّ واللجنة الأميركيّة لمواصفات منشآت الطاقة والمجلس التنفيذيّ للمنشآت الفضائيّة. ألّفَ سلمان أبو ستة أكثر من ثلاثين بحثًا علميًّا وكتابًا في الهندسة، أبرزها "أطلس فلسطين". وحصل على أكثر من جائزة من جمعيّة المهندسين البريطانيّة. كما كان بروفيسورًا يحاضر في جامعة ويسترن أونتاريو الكنديّة. وكان عضوًا مستقلًا في المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ من عام 1974 حتى توقيع اتفاقية أوسلو عام 1993، وهو عضو هيئة التعاون الفلسطينيّة في جنيف ورئيس لجنة اللاجئين والأنروا هناك.

إياد السرّاج

1944-2006، ولد في بئر السبع ولجأت عائلته إلى غزّة في عام 1948. وكان الطبيب النفسيّ الفلسطينيّ الذي أسّس برنامج غزة للصحة النفسيّة. كتب في مجالات عدّة، منها تحليل ظاهرة العمليّات الفدائيّة في مقاومة الاحتلال. اعتقله الجيش الإسرائيليّ مرّة وقوات الأمن التابعة للسلطة الفلسطينيّة إبان حكم الرئيس السابق ياسر عرفات، مرة ثانية.

سلمان الهرفيّ

ولد في بئر السبع عام 1944. لجأ مع عائلته إلى غزة في عام 1948. وعمل في السلك الدبلوماسيّ الفلسطينيّ، وتولّى منصب سفير فلسطين في عدد من الدول، منها جنوب أفريقيا وفرنسا.

فرج الصرّاف

ولد في بئر السبع عام 1919 وهو محام وباحث فلسطينيّ. عضو في حركة فتح وعضو سابق في المجلس التشريعيّ الفلسطينيّ. له عدد من المؤلّفات القانونيّة والتاريخيّة. توفي فرج الصرّاف عام 2010.

صخر بسيسو

ولد في بئر السبع عام 1944. وهو مهندس وسياسيّ فلسطينيّ لجأت عائلته إلى غزة في 1948. وكان عضوًا في المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ وحركة فتح ومجلسها الثوريّ. أشغل عددًا من المناصب الحكوميّة والوزاريّة في السلطة الفلسطينيّة، كان آخرها وزيرًا للرياضة والشباب في الحكومة الفلسطينيّة الثالثة عام 2005.

عبدالله الإفرنجي

ولد في بئر السبع عام 1943. وهو دبلوماسيّ وسياسيّ فلسطينيّ، تولّى عددًا من الوظائف في منظّمة التحرير والسلطة الفلسطينيّة، كان آخرها محافظًا لغزة.

نساء النقب

البقاء رغم الشقاء

يشهد التاريخ على صمود السبعاويّات والسبعاويّين، رغم إجرام الاحتلال في جنوب فلسطين، الذي تمثّل بالقتل والاعتقالات وهدم المنازل والتشريد. بل تصدّى البدو لكل ذلك وأعادوا بناء بيوتهم وخيامهم التي هدمتها السلطات الإسرائيليّة كل مرّة من جديد. الأمر الذي لا يزال يحدث في قرية العراقيب كما جاء أعلاه، وغيرها. فقد أدرك عرب النقب أنّ تلك السياسات تهدف إلى تفريغ أراضيهم منهم من أجل تهويدها، كما حدث في شمال فلسطين وسائر المدن والقرى، وأصرّوا على تحدّيها بكل العزم والوسائل المتاحة، رجالًا ونساء.

معارك نساء النقب اليوم

لا يقتصر دور المرأة البدويّة النضالي اليوم على رعاية الأطفال والمنزل والعمل، بل إن ما يجعلها رمزًا للصمود في جنوب فلسطين هو مواجهتها الاحتلال وتحمّل أوزار النكبة المستمرّة والاضطهاد متعدّد الأشكال والطبقات.

الاضطهاد العرقيّ

تعيش المرأة البدويّة في النقب اليوم دون أدنى المقوّمات الأساسيّة، فهي تسكن في قرىً مسلوبة الاعتراف، أو في مدن وقرى التوطين القسريّ التي رُحّلت إليها بعد انتزاعها من بيئتها الطبيعيّة، لتجد نفسها في بيئة "حضريّة" غريبة عن ثقافتها وبيئتها المألوفة، لتواجه تحدّيات اجتماعيّة وثقافيّة جديدة دون أدنى معرفة أو خبرة بكيفيّة التعامل معها.

الاضطهاد الطبقي

تقع المرأة النقباويّة في أدنى طبقات السلّم الاقتصاديّ، فأكثر من 60% من النساء البدويّات في القرى مسلوبة الاعتراف تسرّبن من المدارس، و16% منهنّ فقط يعملن. وتظهر الدراسات أنّ تدنّي نسبة التعليم والعمل في أوساط النساء البدويّات هو من أهمّ أسباب انتشار ظواهر تظلم المرأة،

كالزواج المبكّر وتعدّد الزوجات في المجتمع البدويّ في النقب. فعدم قدرة المرأة على إعالة نفسها وأولادها يعزّز تبعيّتها الاقتصاديّة التامّة للرجل، و يرغم المتزوّجة على التمسّك بزوجها والقبول بزواجه من أخرى، ولا يترك الكثير من الخيارات للفتاة القاصر سوى الزواج برجل قادر على إعالتها.

اضطهاد جندريّ

تهيمن الثقافة الذكوريّة على المجتمع البدويّ بشكل خاص، ويسود التمييز الصارخ ضدّ المرأة. إذ أن العادات والتقاليد والأعراف البدويّة توزّع الأدوار وتكرّس الأفكار التي تفضّل الرجل بامتيازات وإمكانيّات وتحرم منها المرأة وتنتقص من شأنها. والنتيجة المأساويّة هي بيئة متسامحة مع جرائم العنف ضد الإناث، التي تنتشر بكثرة في النقب، وحتّى ضدّ بعض الرجال الذين لا يلتزمون بهذا التمييز وهذه المعايير.

آفاق الأمل للنساء

رغم أنّ النكبة لا تزال تضرب النقب وتسعى للنيل من لبنته، ثمة تحوّلات باعثة للأمل برزت في المجتمع البدويّ خلال العقدين الأخيرين، وأهمّها وأكثرها مفصليّة هي التحوّلات في أدوار النساء. وتشير البروفيسورة سارة أبو كف، وهي طبيبة نفسيّة معالجة، من قرية أم بطين مسلوبة الاعتراف، إلى ملاذين متوازيين تلجأ إليهما النساء البدويّات للنهوض من هوّة الضائقة السحيقة التي يعشنها، وهما التعليم الجامعيّ، والعمل في مجالات لا تتطلب مؤهّلات، كفروع الغذاء، الزراعة والنظافة، المجال الذي تلجأ إليه نساء لم يسبق لهنّ العمل خارج المنزل ومنهن من بلغن أو تجاوزن جيل الستّين. نسبة الإناث في جامعة بن غوريون- بئر السبع هي 80% من مجموع الطلّاب البدو في الجامعة. وعدد كبير منهنّ يأتين من قرى مسلوبة الاعتراف، يتحدّين مشقّة السفر وشحّ وسائله وانعدام الخدمات الأساسيّة في قراهنّ كالماء والكهرباء، من أجل فتح آفاق جديدة للحياة.* ويثبتن أنّ المرأة العربيّة في النقب عصيّة على الكسر وقادرة على النهوض بنفسها ومجتمعها من تحت ركام النكبة المستمرّة.

* https://www.itach.org.il/1325/info-center/sarah/?lang=ar

كيان - تنظيم نسويّ تأسّس عام 1998، ويطمح لمجتمع متنوّع وآمن وعادل، خالٍ من التمييز الجندريّ، تحظى فيه النساء الفلسطينيّات بفرص متكافئة لتحقيق الذّات، وتأخذن دَوْرًا قياديًّا ومؤثّرًا في المجتمع من خلال إدراكهنّ وتحقيقهنّ لحقوقهنّ الفرديّة والجمعيّة. ولتحقيق هذا، نسعى في كيان لتشكيل حركة نسويّة فلسطينيّة ميدانيَة منظّمة وفاعلة في البلاد وتمتدّ إلى مناطق فلسطين التاريخيّة كافّة. تؤثر عمليا في المجتمع من خلال مواجهة مسبُبات وجذور قضايا وظواهر التَّمييز الجندري والدفاع عن حقوق النساء وضمان انخراطهنّ في دوائر اتّخاذ القرار بشكل عام.

كيان - تنظيم نسوي
KAYAN- FEMINIST ORGANIZATION

+972-4-866-1890 info@kayanf.org kayanfeminist.org
kayanfeministorganization kayanfeminist